سبيل محمد علي باشا



أجنيشكا دوبرولسكا وخالد فهمى

تم ترميم سبيل محمد على باشا بين عامي ١٩٩٨ و ٢٠٠٢



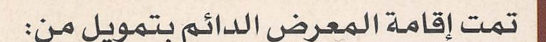
بالتعاون بين المجلس الأعلى للآثار



ومركز البحوث الأمريكي بمصر



وبتمويل من الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية.



تمت إقامة المعرض الدائم بتمويل من:



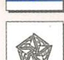
مركز البحوث الأمريكي بمصر بمنحة مقدمة من الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية،



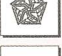
السفارة الملكية الهولندية بالقاهرة،



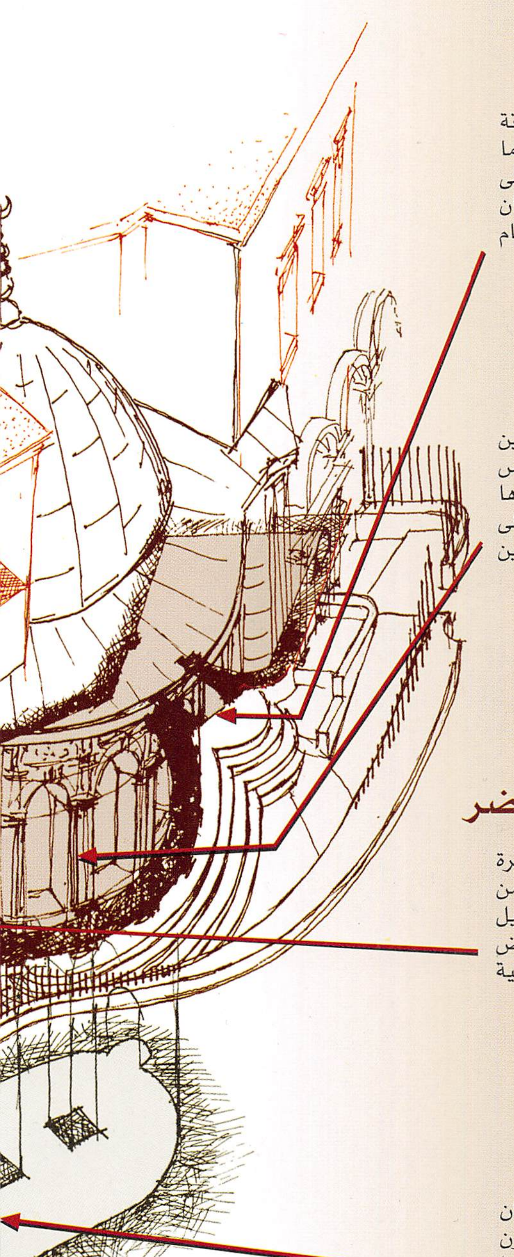
الاتحاد الأوروبي عن طريق بعثة المفوضية الأوروبية بالقاهرة،



هيئة بركات،



المجلس الثقافي البريطاني بالقاهرة.

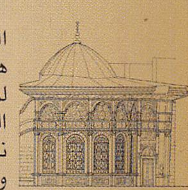


المدخل



كانت السلالم المؤدية للسبيل مدفونة تحت الأرض حتى عام ٢٠٠٠م. أما الآن فيستطيع المرء أن يدخل المبنى من نفس مستوى الشارع الذي كان السبيل يطل عليه عند تشييده عام ١٨٢٠م/١٢٣٥هـ.

حجرة السبيل



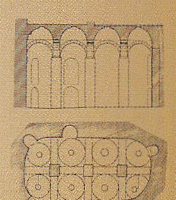
الزخارف الفائقة الجمال التى تزين هذه الحجرة توحى بصور الفردوس لمن يلمحها من خارج احجبة نوافذها المذهبة. كما تحتوي هذه الحجرة على نصوص الأبيات الشعرية التي تزين واجهة المبنى وترجمات لها.

أساليب البناء في الماضى والحاضر



تستعرض اللوحات في هذه الحجرة التي كانت مخصصة لرفع المياه من الصهريج أسلوب بناء هذا السبيل وطريقة عمله. كما تستعرض الأساليب التي اتُبعت في عملية الترميم.

الصهريج



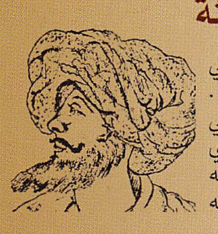
كان الصهريج من الفخامة بحيث كان بوسعه أن يقدم مليون ونصف المليون من أكواب المياه في السنة، أي ما يعادل أربعة آلاف كوب في اليوم الواحد. وكان الصهريج مغطى وغير مستعمل لمدة مائة عام حتى اكتشف فى عام ٢٠٠٠م وهو الآن مفتوح للزيارة.

تعلم القراءة والكتابة



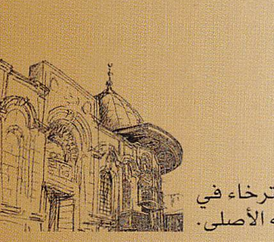
يعرض الفصل الدراسي الذي أُعيد تكوينه كيفية عمل المدرسة التي كانت قائمة في هذا المبنى وكيف اختلفت عن اساليب التعليم التقليدية.

ميلاد مصر الحديثة



يشار إلى محمد علي عادة على أنه "مؤسس مصر الحديثة". وتستعرض اللوحات الموجودة في القاعة الرحبة في الطابق العلوي حياة هذا الرجل المرموق وإنجازاته العديدة. كما تستعرض حياة ابنه طوسون القصيرة.

2004



الفناء

يمكنكم الاستراحة والاسترخاء في الفناء الذي أُعيد إلى شكله الأصلي.

سبيل محمد على باشا

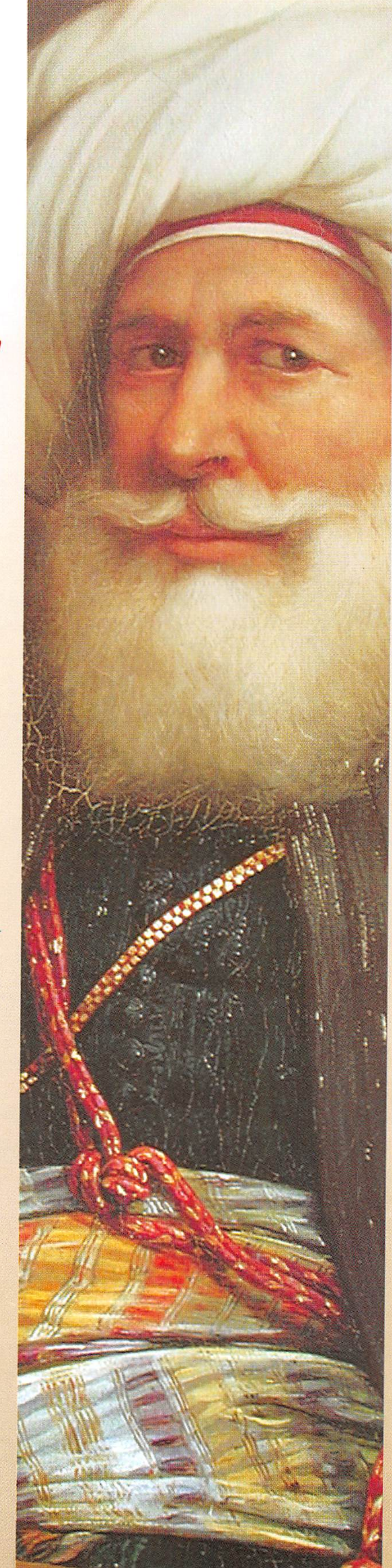
دليل المعرض الدائم
المقام فى سبيل محمد على باشا
العقادين، القاهرة

أجنيشكا دوبرولسكا
خالد فهمى

الطبعة الأولى
١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥م

ترجمة
شريف يونس

© دار الشروق



الصور التوضيحية ومصادرها

تفضل مركز البحوث الأمريكى بمصر ARCE بالإذن باستخدام صور فوتوغرافية ورسوم مرتبطة بمشروع الترميم. وهى المذكورة أدناه بأسماء مبدعيها:

رسوم لباسكال كوست أتيحت بفضل مكتبة مرسيليا البلدية: صفحات ٥٠، ٥٢، ٥٤، ٥٥ (اثنان)، ٥٦ (اثنان).

وثائق وخطابات: صفحات ٤١، ٤٥، ٤٧، ٤٩ (اثنان)، ٥١، ٥٤، أتيحت بفضل دار الكتب والوثائق المصرية.

الصور فى صفحات ٣٤، ٤٢، ٥٢، ٥٩، ٦١ أتيحت بفضل د. ماجد فرج: Impressions of Eygpt

أذن الأمير عباس حلمى لطفا منه باستخدام مواد من أرشيف أسرته، على صفحات ٤٨ و٦١.
استُخدمت مستنسخات من المصادر المنشورة التالية:
Description de l'Egypte ou recueil des observations et des recherches,1822، صفحة ٤٢: ؛ Egypt: Descriptive, Historical and Picturesque,1879 Georg Ebers، صفحات ٢٦، ٥٣. ,Robert Hay1840، صفحة ٥٧: d'Avennes Oriental Album,1844 Prisse، صفحة ٥٣: David Roberts، صفحة ٤٤: Mohamed Ali et les Beaux-arts,1926 Gaston Wiet، صفحات ٤٥، ٤٦، ٦٠، ٦٢.

مبدعو الصور الفوتوغرافية والرسوم الأصلية التى تظهر فى هذا الدليل:

أجنيشكا دوبرولسكا/ مركز البحوث الأمريكى بمصر، صفحات ٤، ٦، ٧، ١١، ١٢، ١٣(اثنان)، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١(تسعة)، ٢٢ (ثلاثة) ٢٣ (خمسة)، ٢٦، ٢٧(ثمانية)، ٢٩(أربعة)، ٣١، ٣٢(ثلاثة)، ٣٣.

ياروسلاف دوبرولسكى، الغلاف المطوى، صفحات ٨(ثلاثة)، ١٨، ٢١ (اثنان)، ٣٧، ٣٨-٣٩، ٦٣.

باتريك جودو/ مركز البحوث الأمريكى بمصر، صفحات ١٠، ١٤(اثنان)، ١٥، ١٦، ٢٠(خمسة)، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٦، ٢٨، ٣١(أربعة)، ٣٢(ثلاثة).

چبيتشك إلينسكى، صفحات ٩، ٢٤- ٢٥.

يان ليندمان/ مركز البحوث الأمريكى بمصر، صفحة ٢٦.

إريكو بينتر/ مركز البحوث الأمريكى بمصر، صفحات ٣٠ (اثنان)، ٣٣ (اثنان).

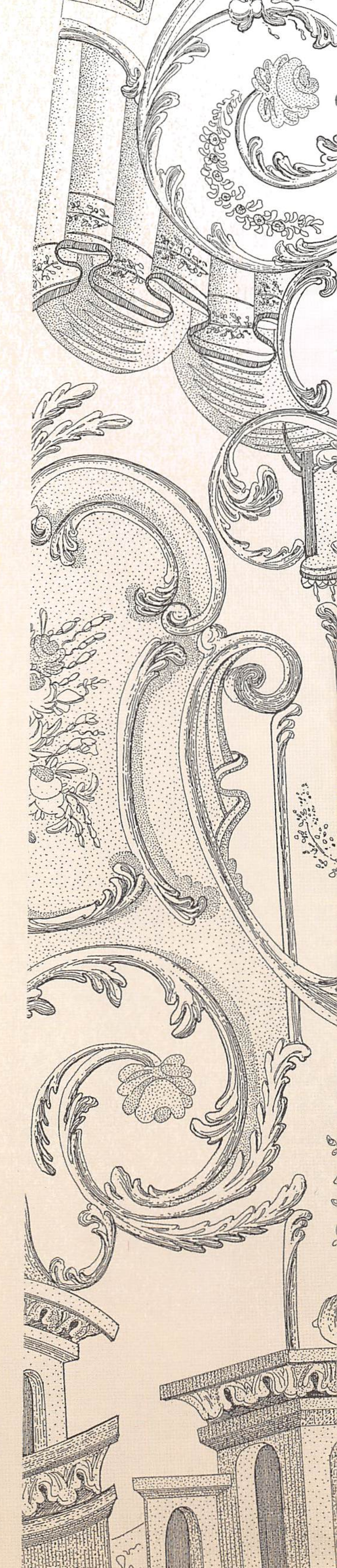
مارك بوپكارسكى/ مركز البحوث الأمريكى بمصر، صفحات ٣، ٧، ١١، ١٢- ١٣، ١٦- ١٧، ١٨.

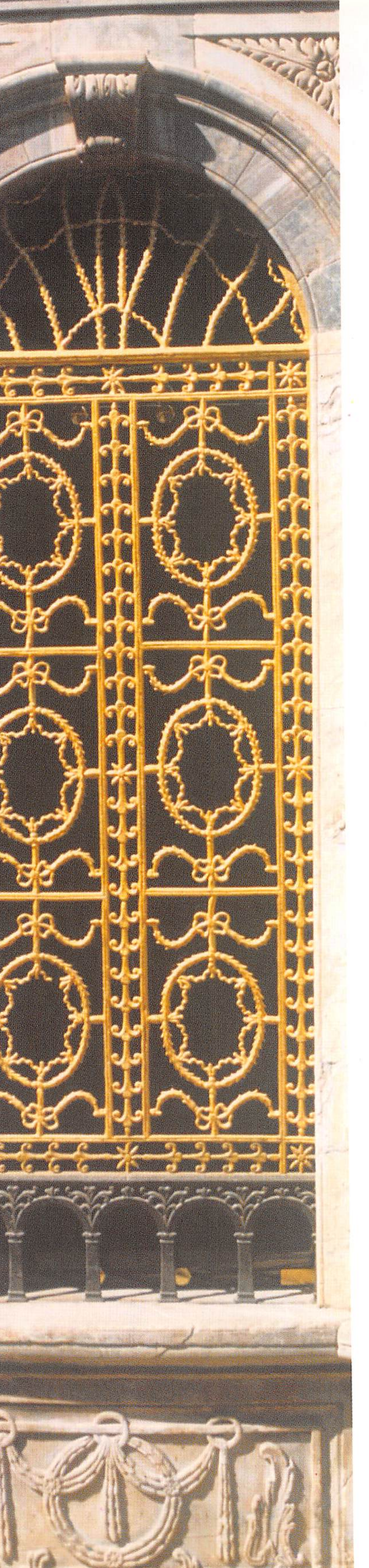
روبرت (شيب) فنسانت/ مركز البحوث الأمريكى بمصر، صفحات ٢١، ٢٩، ٣٠(اثنان)، ٣٣(اثنان).

وقد قام بترجمة القصائد من التركية إلى الشعر الحر باللغة الإنجليزية ستانسلاف جولنسكي وشيلدون واطس وجايسون تومبسون وقام بالترجمة إلى اللغة العربية ماجدة فتحى أمين

القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى - مدينة نصر
ص.ب.: ٣٣البانوراما - تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: dar@shorouk.com

المحتويات





شكر وعرفان

منذ زمن قصير، لا يبعد عن عام ١٩٩٨، كان سبيل محمد على الموصوف هنا متهدما فعليا وعلى وشك الانهيار. وبعد ست سنوات يقدم هذا الدليل مبنى تم ترميمه بالكامل، ومحاولة لفهم تاريخ مؤسسه.

لقد أمكن إنقاذ المبنى بالترميم من الانهيار وأقيم المعرض الدائم فيه وظهر هذا الدليل، كل ذلك بفضل تمويل ودعم المؤسسات التى نعترف بفضلها شاكرين فى هذه الصفحات.

وغير ذلك هناك أفراد فى هذه المؤسسات وخارجها كان لعملهم الشاق واهتمامهم وخبرتهم عبر سنوات العمل أثرها فى تحقيق ما يعرضه هذا الدليل. وهم أكثر من أن نحصرهم جميعا بالاسم، ولكن كل مساهمة منهم قوبلت بعرفان من القلب. كان من حظ السبيل أن عالجه فريق من المصريين المتحمسين والمرممين الأجانب، وأن يكون له أصدقاء كثيرون معنيون بمصيره.

تطوع الأمير عباس حلمى بالمساعدة فى البحث عن مواد متعلقة بجده محمد على. وطوال عملية الترميم وإنتاج هذا الدليل كان اهتمام ونصح ودعم د. روبرت (شيب) فينسنت، مدير برنامج الترميم فى مركز البحوث الأمريكى بمصر، يفوق كل تقدير، فكان مثالا لالتزام المؤسسات الودود بدعم هذا العمل. وقد ضم د. روبرت سبرنجبورج، مدير مركز البحوث الأمريكى بمصر فى ذلك الحين خالد فهمى إلى المشروع، وهو ما أسفر عن التأليف المشترك لهذا الدليل. وبفضل الإذن الكريم للدكتور محمد صابر عرب، مدير دار الوثائق القومية المصرية استطعنا أن ندرج قسما تاريخيا يشمل خطابات ووثائق لم تنشر من قبل.

وساهمت مؤسسات وأفراد كثيرون فى الإخراج الجميل لهذا الدليل، بعمل الصور التوضيحية أو البحث عنها أو بالإذن الكريم بطبعها، فنقدم لهم جميعا شكرا حارا، كما يستحق د. ماجد فرج شكرا خاصا على اهتمامه وتحمسه لهذا المشروع.

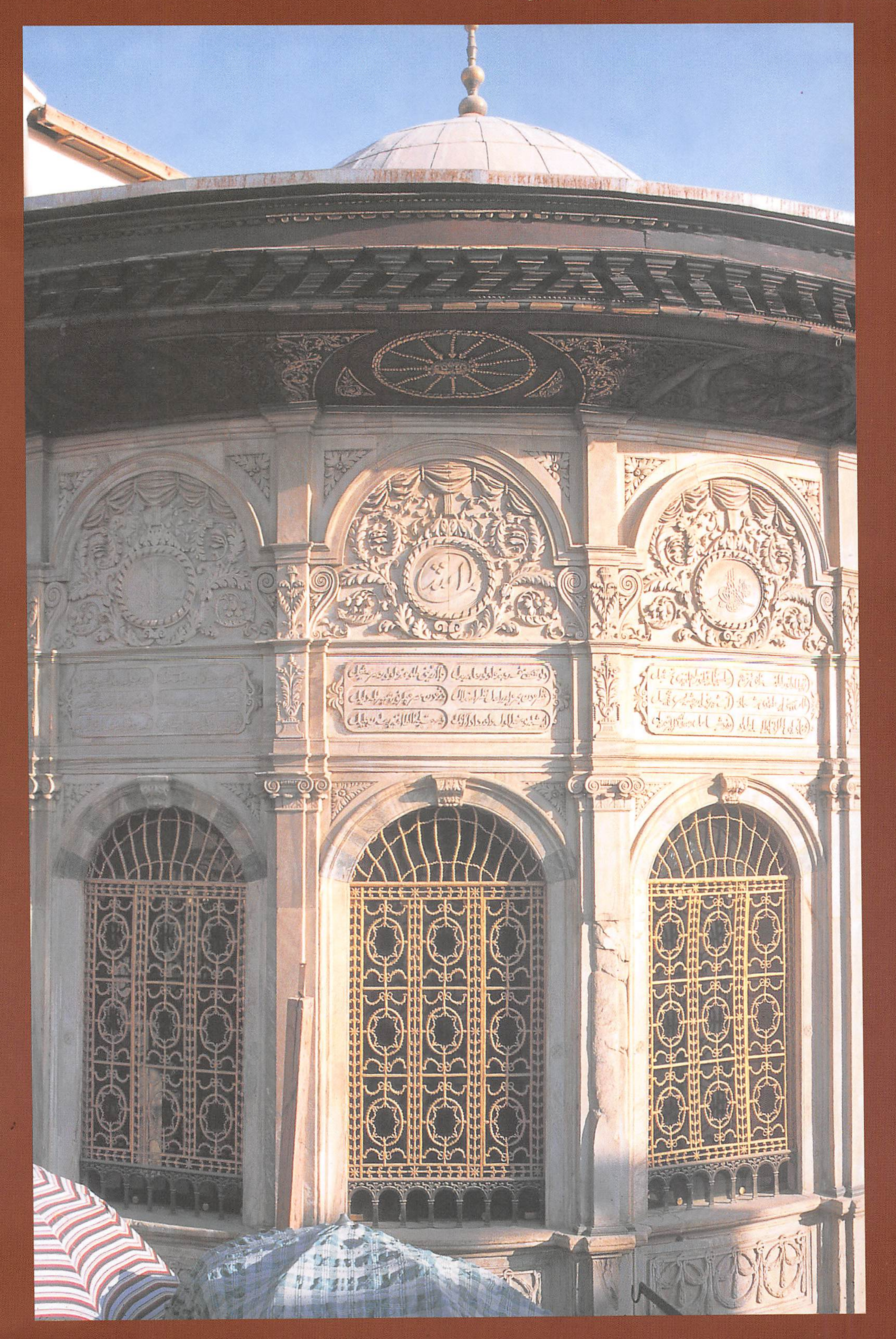
وتود أجنيشكا دوبرولسكا أن تقر بدينها غير المحدود لياروسلاف دوبرولسكى، الذى لم يقدم فقط رسومه لتزين هذا الدليل، ولكنه ساندها أيضا طوال ست سنوات أدارت فيها عملية ترميم السبيل، بأيامها الحلوة والصعبة على السواء.

لقد كان السبيل جزءا من حى العقادين المفعم بالحياة الذى واصل نشاطه طيلة السنوات الألف الأخيرة. ونود أن نعبر عن شكرنا العميق لأهل الحى الذين استضافوا المشروع، ونعرب عن اعتزازنا بالصداقات العديدة التى عقدناها معهم.

المؤلفان

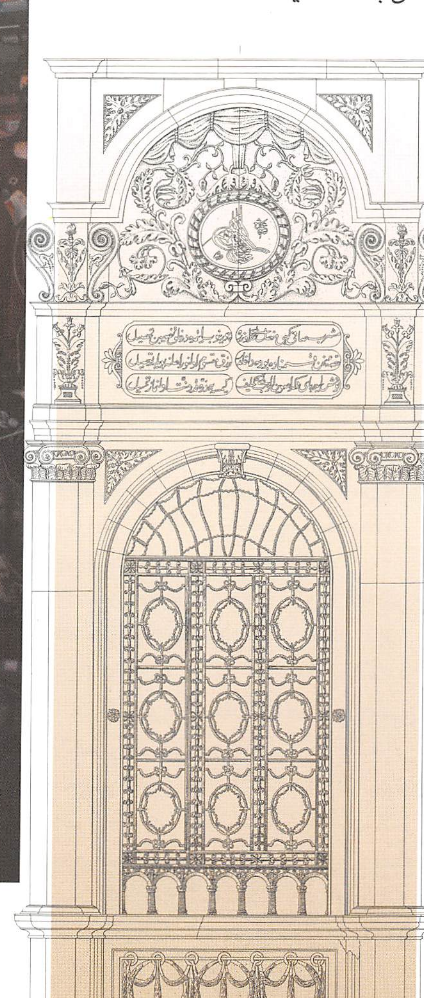

المبنى
وخطوطه المتغيرة





هبة من الماء المبارك تحيي كل شيء
ويذكر التاريخ العديد من
رجال مصر الأفاضل بأعمالهم
ولكنه محمد علي باشا وحده
الذي أنشأ هذا السبيل المجيد
لنهل الماء المبارك

على واجهة المبنى الرخامية نُحت هذا الوصف الذى كتبه شاعر مجهول فى وصف السبيل الذى بناه محمد على باشا عام ١٢٣٥ هـ/١٨٢٠م، فى قلب مصر القديمة، بعد أكثر من ٨٥٠ سنة من بناء المدينة.



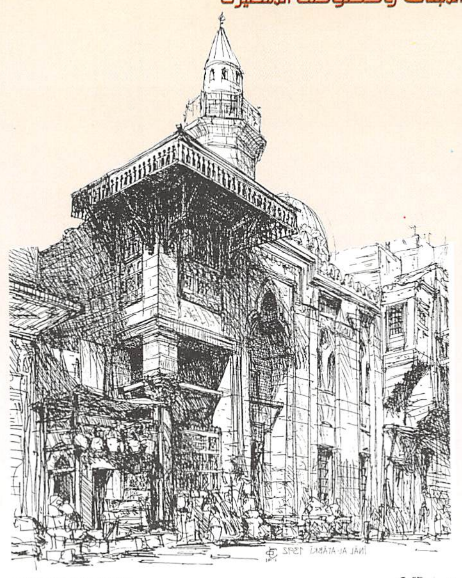
سبيل محمد على باشا: الواجهة الرئيسية (الصفحة المقابلة)، وتفاصيلها (يمينا) وفى إطارها المدينى (أعلى)

السبيل صهريج لمياه الشرب، موهوب كوقف خيرى لتوزيع مياه الشرب مجاناً على الناس. وكان معظم مياه الشرب فى القاهرة يُجلب من النيل ليبيعه السقاءون فى الشوارع، ولذلك كانت الأسبلة مرغوبا فيها ومفيدة، وبُنى منها الكثير فى المدينة. وكان منشئ السبيل يطمع فى أن يجزيه الله عنه خيرا فى الآخرة، وأيضا فى رفع مكانته الاجتماعية وفى تخليد ذكراه. والأسبلة موجودة فى العديد من مدن العالم الإسلامى، لأن تقليد مساعدة أبناء السبيل عميق الجذور فى الإسلام. وتنتمى جرار الماء الفخارية وثلاجات الماء المعدنية التى نجدها كثيرا فى شوارع القاهرة حتى الآن إلى نفس التقليد.

وحين ظهرت الأسبلة فى القاهرة للمرة الأولى فى القرن الرابع عشر، كانت ملحقة بالجوامع وبمبان دينية أخرى أقامها السلاطين والأمراء. ثم بنى الأثرياء من الرجال والنساء أسبلة كمبان منفصلة فى مواقع بارزة فى المدينة. وتتميز القاهرة وحدها باشتمال مبنى السبيل على "كُتاب" للتعليم الأولى يقام أعلاه. وأصبحت الأسبلة - الكتاتيب من المعالم التقليدية للمدينة.

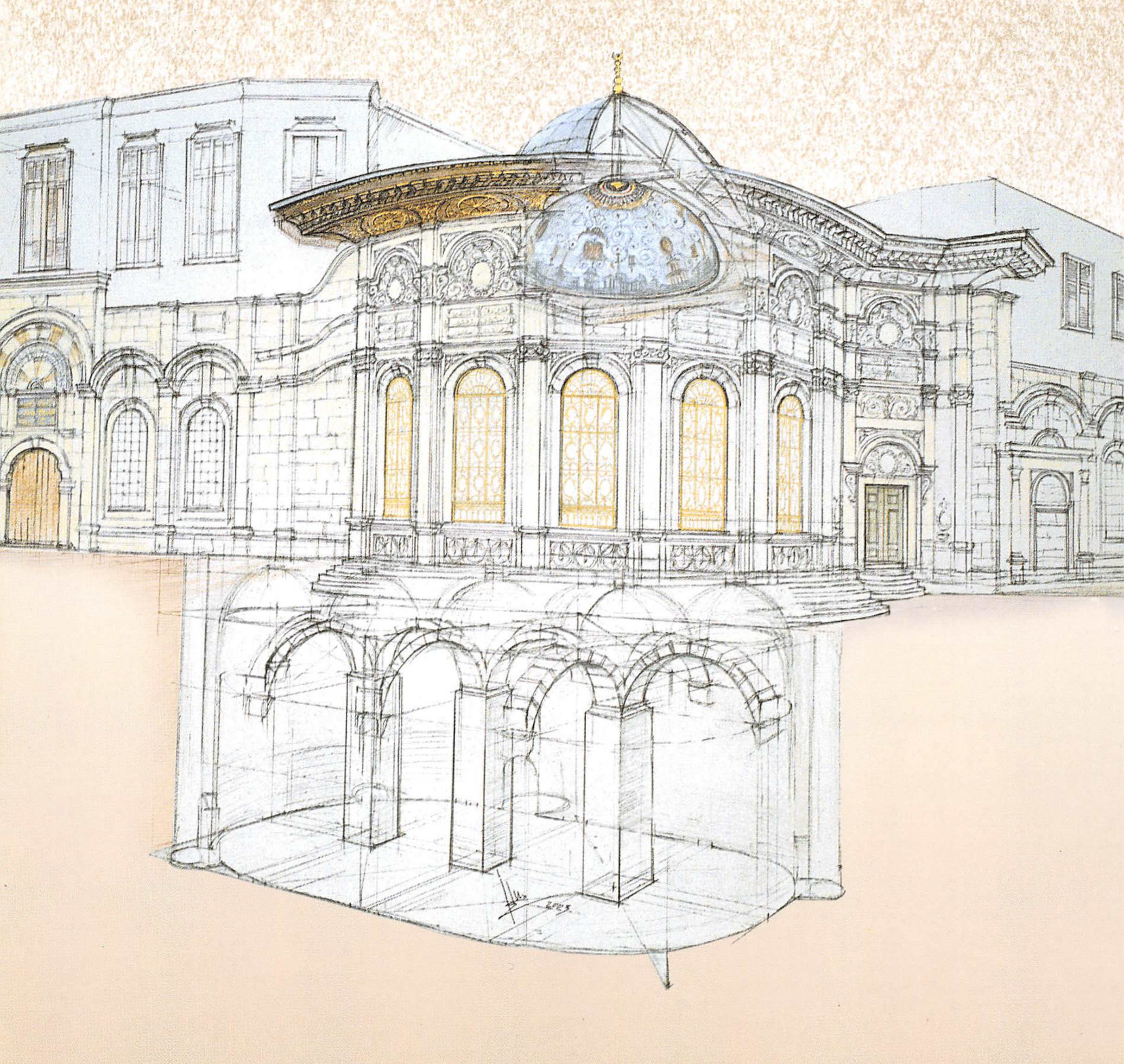
وحين غزا نابليون بونابرت مصر عام ١٢١٣هـ/١٧٩٨م أحصى مساحوه أكثر من ثلاثمائة سبيل فى القاهرة.

وتعكس أسبلة- كتاتيب القاهرة الطرز المعمارية للعصور التى بنيت فيها. فالأسبلة الأولى تعد أمثلة رائعة للطراز المملوكى، وهو تقليد معمارى عميق الجذور فى القاهرة لدرجة أنه امتد إلى العصر العثمانى. أما الأسبلة- الكتاتيب التى بنيت فى أواخر القرن الثامن عشر فهى نماذج رفيعة لطراز معمارى جمع بين التقليد المملوكى وعناصر من الزخرفة العثمانية ظهرت فى اسطنبول عاصمة الدولة العثمانية.



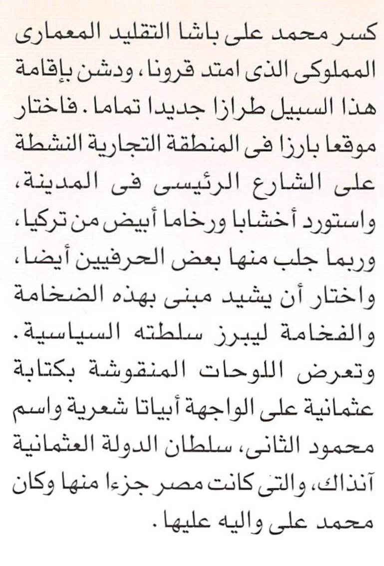


أعلى: سبيل وكتاب إينال الأتابكى، ٧٩٤ هـ/١٣٩٢م.
الأوسط: سبيل وكتاب قيطاس بك، ١٠٣٩هـ/١٦٣٠م.
أسفل: سبيل وكتاب رقية دودو، ١٢٠٥هـ/١٧٩١م.
الصفحة المقابلة: سبيل محمد على باشا، ١٢٣٥هـ/١٨٢٠م.







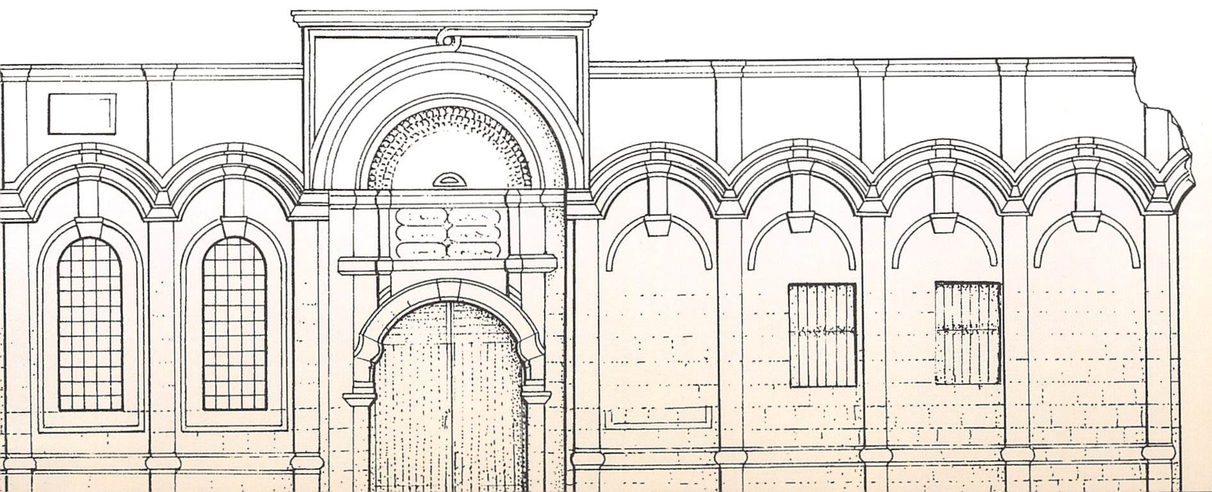


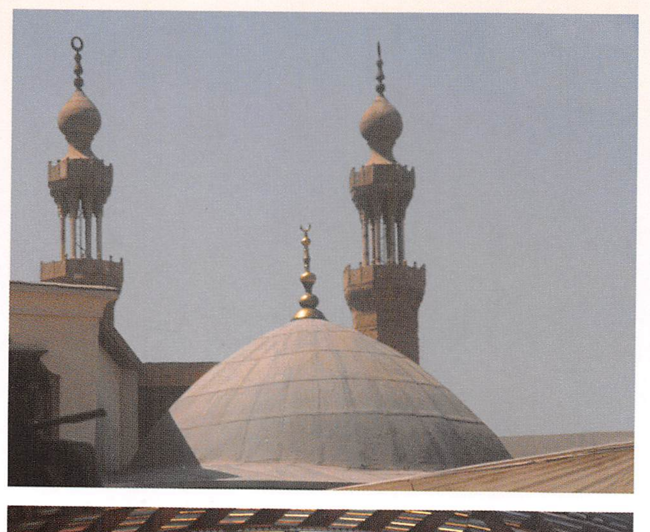
كسر محمد على باشا التقليد المعمارى المملوكى الذى امتد قرونا، ودشن بإقامة هذا السبيل طرازا جديدا تماما. فاختار موقعا بارزا فى المنطقة التجارية النشطة على الشارع الرئيسى فى المدينة، واستورد أخشابا ورخاما أبيض من تركيا، وربما جلب منها بعض الحرفيين أيضا، واختار أن يشيد مبنى بهذه الضخامة والفخامة ليبرز سلطته السياسية. وتعرض اللوحات المنقوشة بكتابة عثمانية على الواجهة أبياتا شعرية واسم محمود الثانى، سلطان الدولة العثمانية آنذاك، والتى كانت مصر جزءا منها وكان محمد على واليه عليها.

الصفحة المقابلة: سبيل محمد على باشا قبل الترميم.
أعلى: توثيق معمارى: تفصيل من الواجهة.
أسفل: زخرفة الواجهة الرئيسية من الرخام الأبيض.

والى مصر محمد على باشا جليل القدر
ارتبط لطفه وكرمه
بإنشائه السبيل الكريم الذي يسعى
فاستحق الذكر الجميل
والدعاء إلى روحه
حاول كسب الانتباه والأجر لروحه
صلى على روحه
عندما بدأ العمل في السبيل
وأهداه من أجل هذه الغاية
فأنشأه كعمل خير.

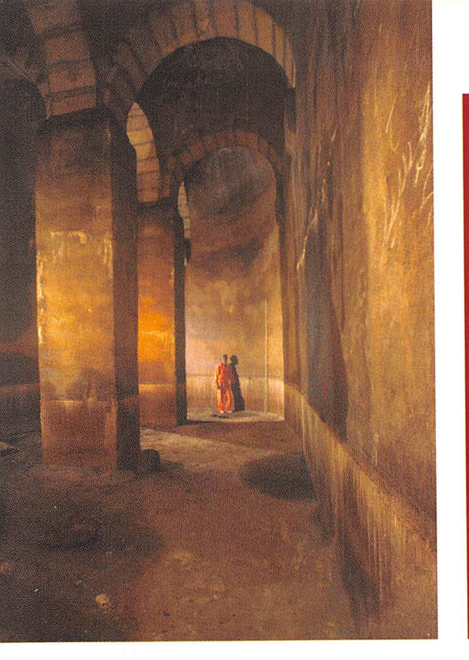
بُنى السبيل ليخلد ذكرى طوسون ابن محمد على الذى مات بالطاعون قبل إنشائه بثلاث سنوات وعمره ٢٢ عاما، وكان أحب أبنائه إليه. ولم يدخر الأب المكلوم جهدا أو مالا فى بناء السبيل ليطبع القاهرة بأثر باق يخلد وجود أسرته وأهميتها. وكان السبيل أيضا نقطة تحول فى معمار القاهرة. فطراز الزخرفة الغنية المنحوتة على الرخام على الواجهة المقوسة كان جديدا تماما. وكان هذا الطراز الذى ظهر فى مبان كثيرة فى اسطنبول تحويرا عثمانيا لطراز الباروك الأوربى، ولكنه كان تحويرا حديثا للغاية فى عصره، مع عنصر كلاسيكى قوى. كذلك كانت الأفاريز الخشبية البارزة المنقوشة الغنية بالنحت متأثرة بطرز معمارية تركية.





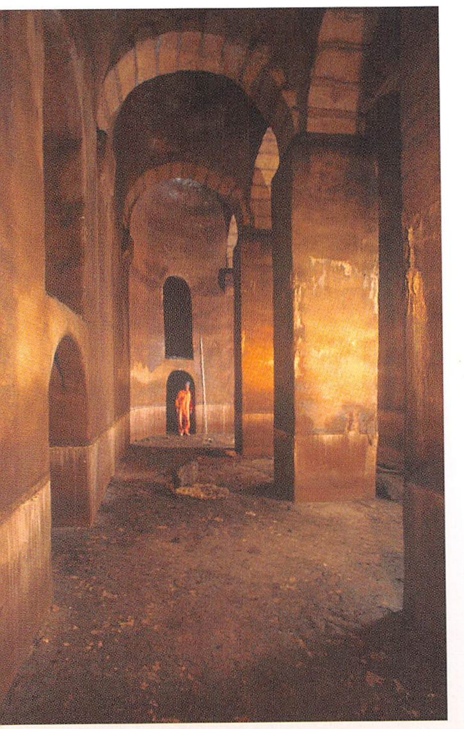
وزيادة فى البعد عن تقاليد العصر المملوكى، لم يُبن فوق السبيل كُتاب، وإنما بُنيت قبة مغطاة بالرصاص، على غرار مبانٍ عديدة فى عاصمة الدولة العثمانية. ولزيادة التأكيد على هذه الفكرة، كان باطن القبة مزخرفا بلوحات تصور مشهدا تركيا مدينيا خياليا، لا يشبه بأى حال أفق القاهرة. وكان يتوج المبنى هلال لامع مطلى بالذهب: وكانت أبواب المدخل الرئيسى مصبوبة بالبرونز الصافى. وكان المقصود بتغطية القضبان المزخرفة، المصابع بالذهب فى النوافذ المقنطرة إبهار الرواد الذين كانوا يرتقون الدرج ليملأوا كوبا من الماء من الأحواض الرخامية خلفها.

الصفحة المقابلة: الواجهة الرخامية البيضاء بنوافذها ذات القضبان المذهبة.
أعلى: القبة المغطاة بالرصاص والأفاريز الخشبية البارزة المزخرفة.
أسفل: المنظر الجانبى لسبيل محمد على باشا.



لو رغبتم لتحول الماء لماء إلهي
ماء عذب كماء من جنات عدن
يحسد القمر الكوب الفضي
ذو الماء العذب
الذي تخجل من عذوبته عين الشمس
كبرج الدلو الذي تحيط به النجوم
طوال الليل والنهار
يقارن بينهم المنجمون

الصفحة المقابلة وإلى اليسار: الصهريج الواقع تحت الأرض عند اكتشافه عام ٢٠٠١.

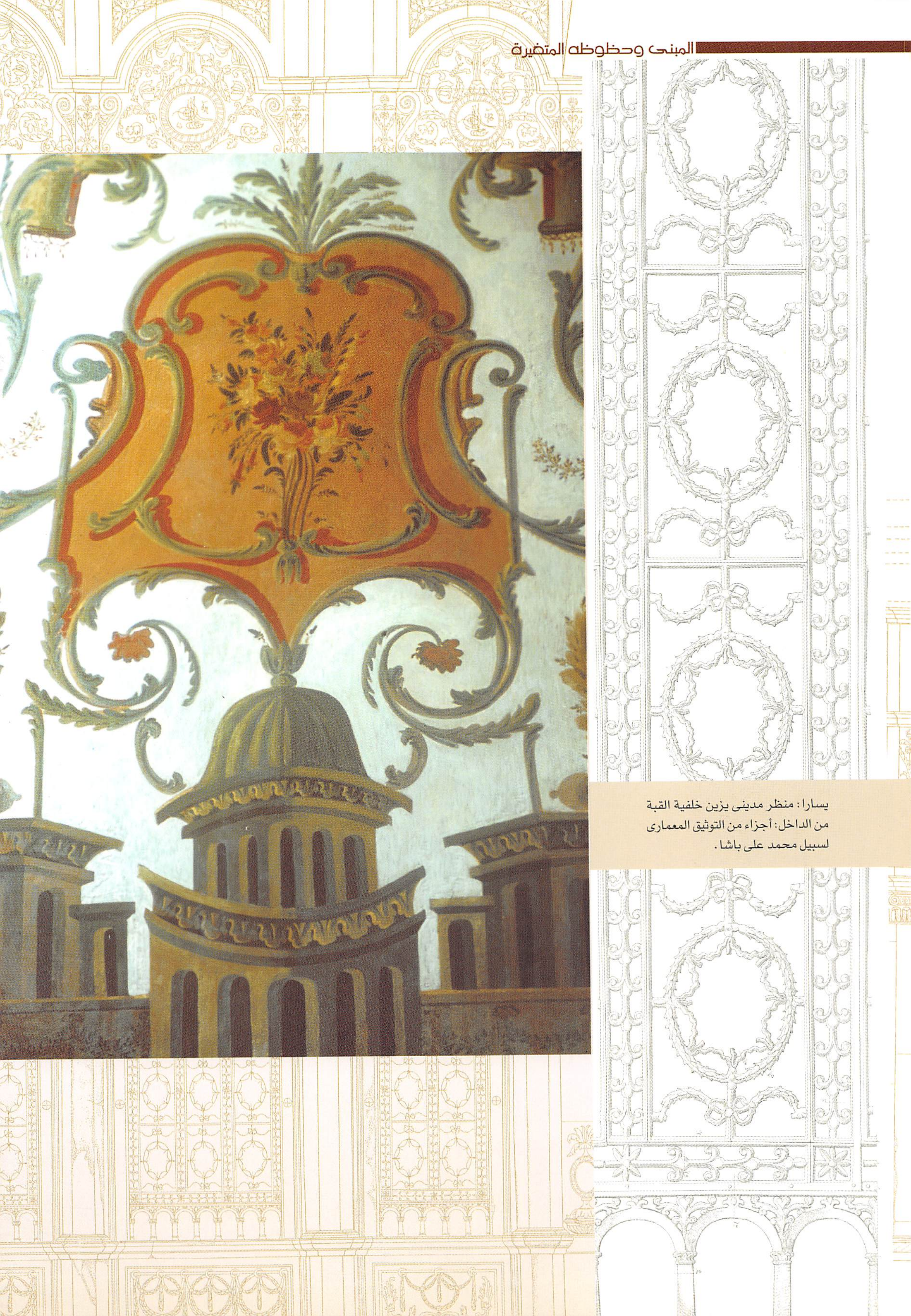


كان الماء يُحفظ فى صهريج ضخم تحت الأرض، عمقه تسعة أمتار، ومسقوف بتسع قباب حجرية، وجدرانه مبطنة بمونة غير منفذة للماء، على غرار المبانى الرومانية القديمة. وكانت تغذيه بالماء أنابيب تملأها سواق منصوبة على الخليج المصرى الذى كان يخترق المدينة وقتها. وتبلغ سعة الصهريج ٤٥٥ ألف لتر تكفى لملء مليون ونصف مليون كوب من الماء. وعادة ما كان الناس الذين يشربون من السبيل يتركون عملات رمزية عرفانا بالجميل، وُجد منها الكثير خلال الترميم تحت الدرجات وفقا للعرف الشعبى.

وكان بمستطاع الذين كانوا يرتقون الدرجات من الشارع ليصلوا إلى النوافذ المغطاة بالقضبان ليشربوا أن يلمحوا باطن القبة المزخرف فوق قاعة السبيل. فتوحى لهم المدينة الخيالية والنقوش النباتية المزهرة المنقوشة عليها بصور الجنة:

روى الله عطشهم بماء يغذي الروح
وسجل الله مكافأة سخية في كتاب الحياة ليوم الحساب
عظم كنزه وتحقق قصده وتدفق الماء
فأصبح السبيل عالما مفتوحا
فهل هناك ما يضاهيه جمالا
ما لم يتفجر ينبوع من الجنة؟





يسارا: منظر مدينى يزين خلفية القبة من الداخل: أجزاء من التوثيق المعمارى لسبيل محمد على باشا.



يمينا : الواجهة الرئيسية بعد الترميم.

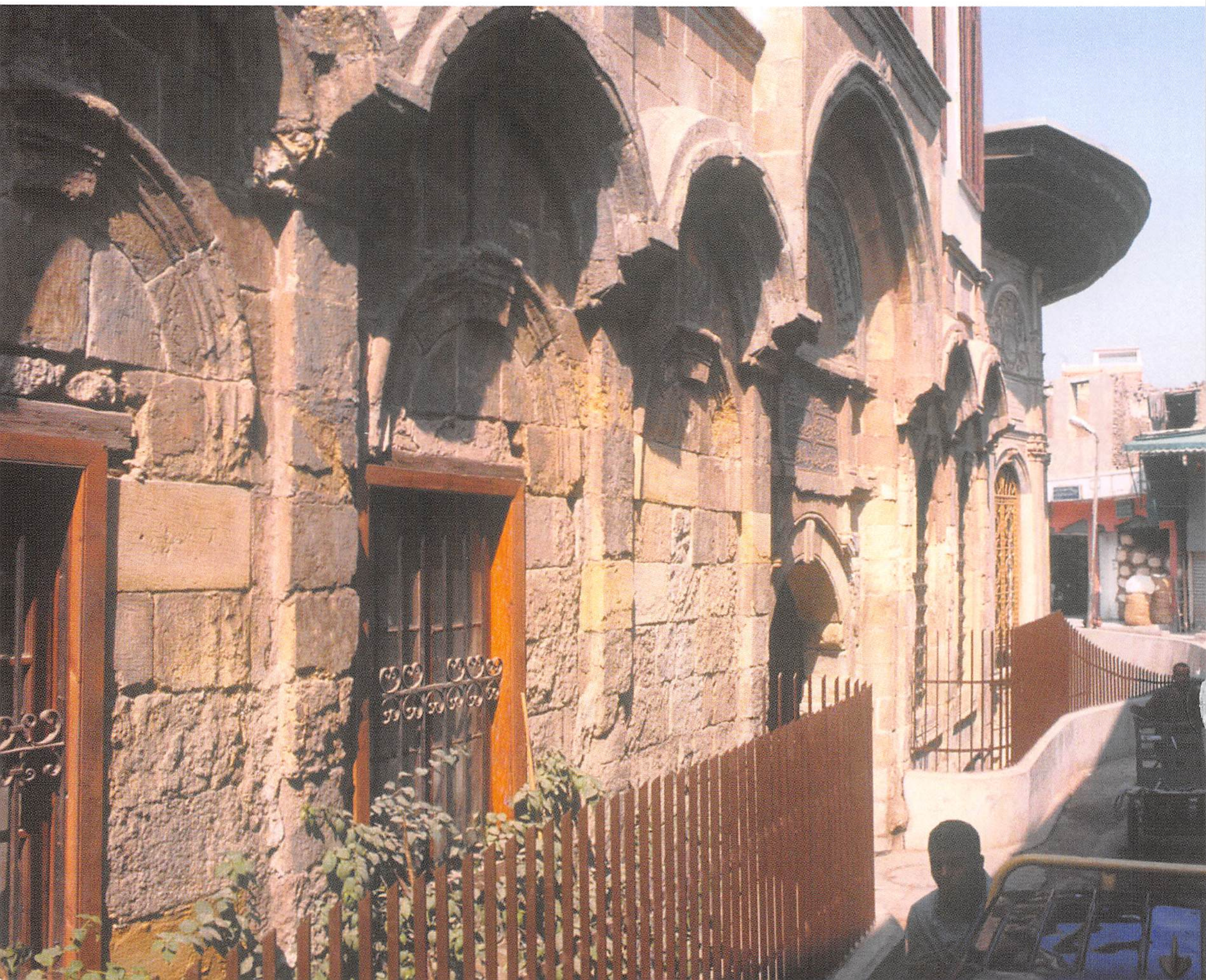


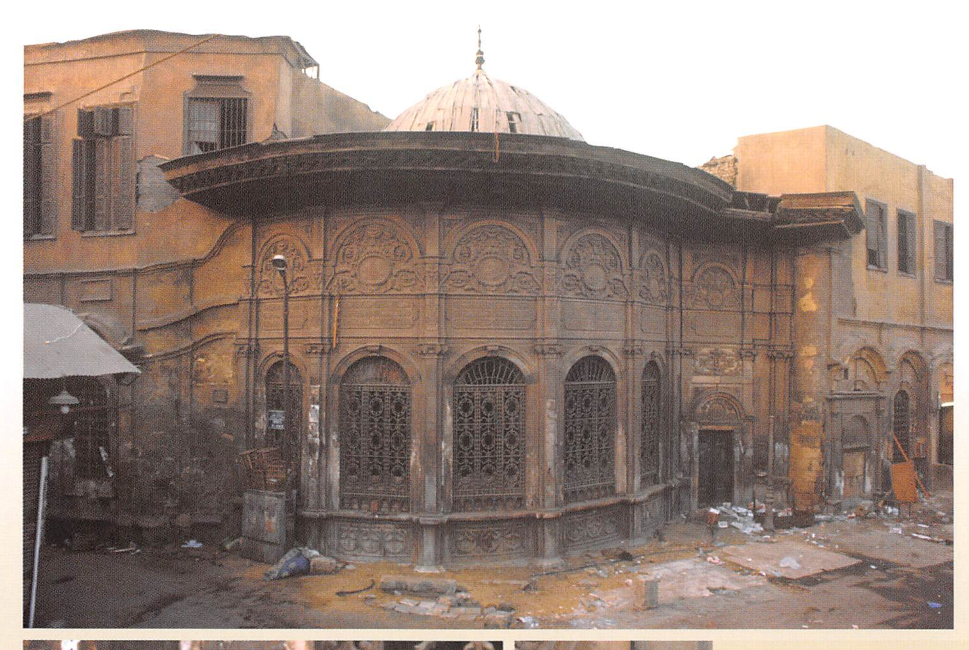
وبعد عقد من إنشاء السبيل، فى وقت ما بين عامى ١٢٤٤هـ/١٨٢٨م و١٢٤٧هـ/١٨٣١م، تم توسيع السبيل وأُضيف دور علوى له، خال من الزخرفة تقريبا، مما يؤكد أنه بنى لغرض عملى. ونحن لا نعرف الكثير عن هذه المرحلة من تطور المبنى، ولكن يبدو أنها مما ترتب على محاولة محمد على لإصلاح التعليم فى مصر. فقد احتاج جيشه وبيروقراطيته إلى نوع جديد من المدارس الابتدائية لتدريس مقررات تعتمدها الدولة لمن سيكونوا ضباطها وموظفيها فى المستقبل. وفى ١٢٥١هـ/١٨٣٦م عين الباشا لجنة حكومية وضعت خططا لإقامة نظام تعليمى شامل فى البلاد.

وفى نفس هذه السنة أجريت أعمال جديدة فى المبنى كما تشهد اللوحة التذكارية المثبتة على الواجهة. غير أن الواقع السياسى والاقتصادى فى مصر قضى على هذه الخطط الطموحة. ففى عام ١٢٥٩هـ/١٨٤٣م لم تتبق سوى ثلاث مدارس ابتدائية حكومية، كانت هذه المدرسة واحدة منها.

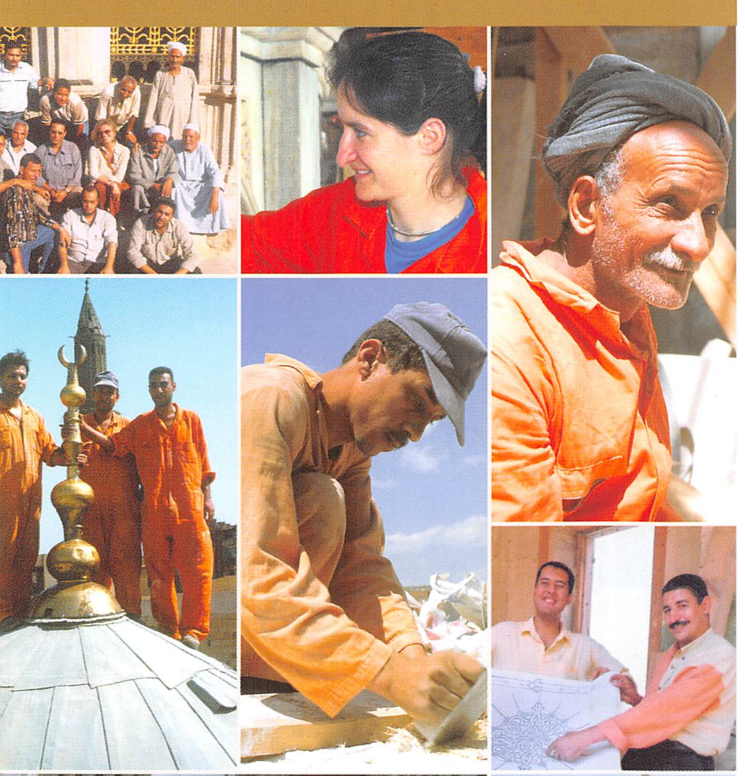
بعد حوالى ثلاثين عاما، فى عام ١٢٨٦هـ/١٨٧٠م، أعيد إنشاء المدرسة فى عصر الخديوى إسماعيل، الذى أحيا اهتمام جده بالتعليم وطوره. فأُنشئ نظام للتفتيش على المدارس وطُبعت الكتب الدراسية، وأُدخل نظام الامتحانات العامة. ووفقا للمقرر الدراسى الجديد الذى وُضع فى ١٢٩٠هـ/١٨٧٣-١٨٧٤م، تلقى تلاميذ المدارس الأولية دروسا متطورة فى اللغة العربية، ولكنهم درسوا أيضا التركية والفارسية واللغات الأوربية الحديثة. وفى سبعينيات القرن التاسع عشر كان يعمل بهذه المدرسة ستة معلمون، يعلمون اللغة العربية والخط واللغة التركية والحساب وتعاليم القرآن. وسرعان ما أضيفت إلى المقررات الجغرافيا والرسم واللغة الإنجليزية. وكانت المدرسة تتبع نظام الامتحان العام، وأُخضع التلاميذ لفحص طبى كل ثلاثة شهور. وقد ضمت المدرسة ٩٥ طالبا عام ١٢٨٨هـ/١٨٧٢م، و١٤١ طالبا عام ١٢٨٩هـ/١٨٧٣م، و١٧٧ طالبا عام ١٢٩٠هـ/١٨٧٤م. وفى ثلاثينيات القرن العشرين، دخلت مياه الشرب بالأنابيب إلى المنطقة فأُهمل السبيل، وأصبحت حجرات الدور الأرضى مدرسة للبنات. وظلت المدرسة مفتوحة حتى الزلزال الكبير عام ١٩٩٢م، الذى وضع المبنى على حافة الإنهيار، فهجرته التلميذات اللاتى حُولن إلى مدارس أخرى، ولكن الكثير من الجارات ما زلن يتذكرن فترة دراستهن فيه.

الصفحة المقابلة، أعلى: سبيل محمد على باشا قبل بناء المدرسة، تصور نظرى.
الصفحة المقابلة: مدخل المدرسة.
أسفل: المنظر الجانبى لسبيل محمد على باشا شاملا المدرسة.



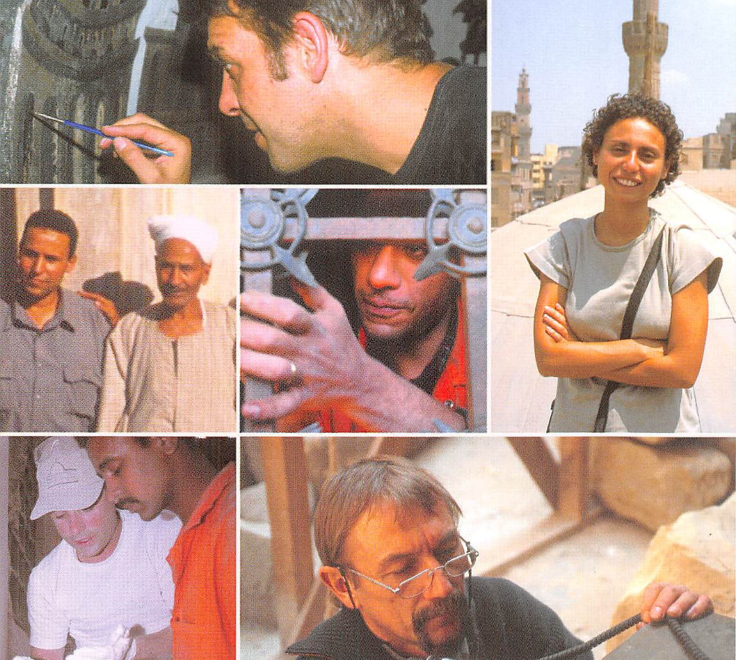


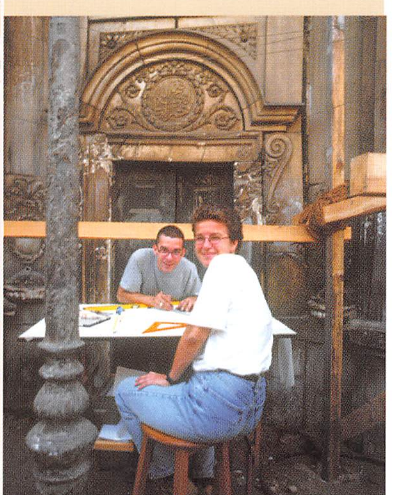
هذه الصفحة: السبيل قبل وبعد الترميم.
الصفحة المقابلة: بعض أعضاء فريق الترميم.

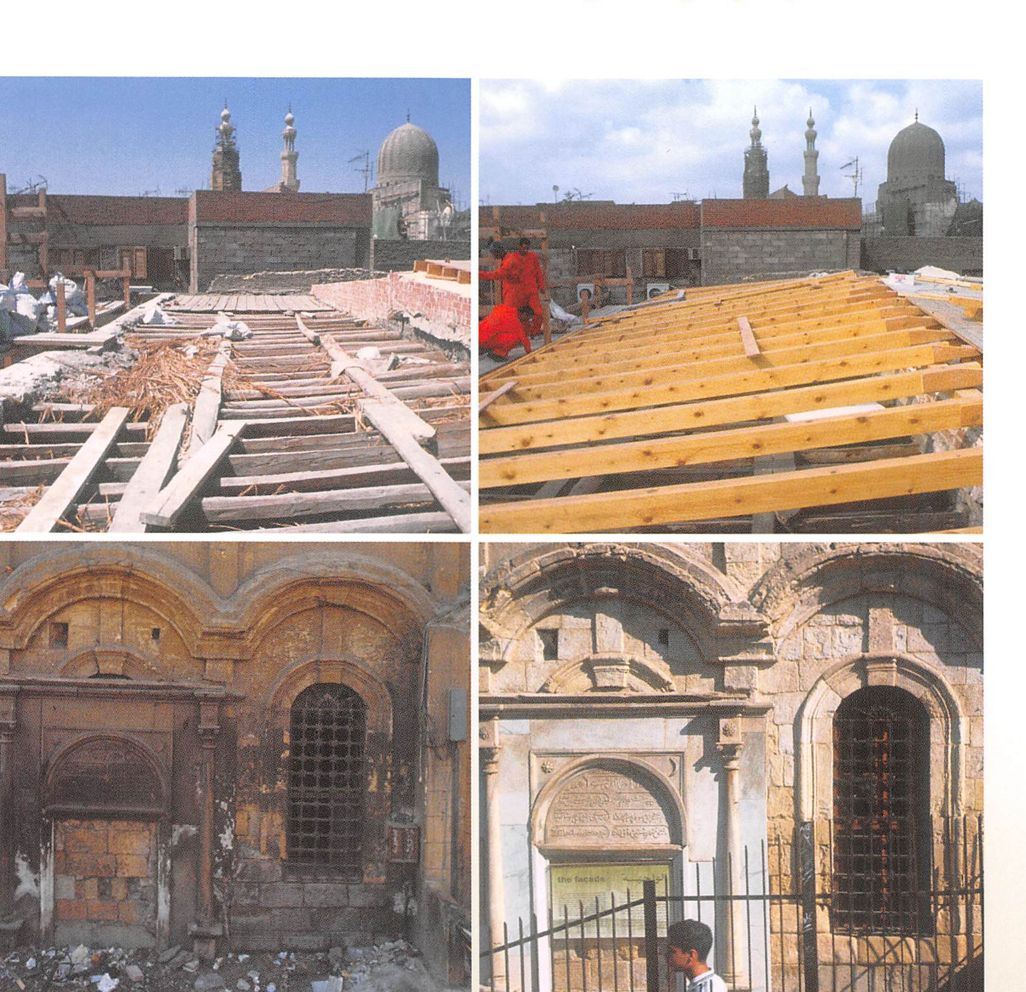


هكذا كان الوضع عام ١٩٩٨م حين بدأ مشروع الترميم الذى تولاه مركز البحوث الأمريكى بمصر، بتمويل من الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية، وأُدير بالتعاون مع المجلس الأعلى للآثار. وكان الهدف استعادة وحماية الطراز التاريخى الأصلى للمبنى، بما فى ذلك السمات الزخرفية المعمارية، ولكن لم تُغفل أجزاء المبنى الأخرى التى تحمل آثار تاريخه، حتى لو كانت متواضعة أو غير ظاهرة. وفى إطار ذلك تمت دراسة المبنى دراسة شاملة وتوثيقيه.

وعمل فى فريق الترميم حوالى خمسون شخصا، منهم خمسة وثلاثون مصريا بما فيهم الحرفيون: والباقى من المهنيين الأجانب من ستة بلاد مختلفة.

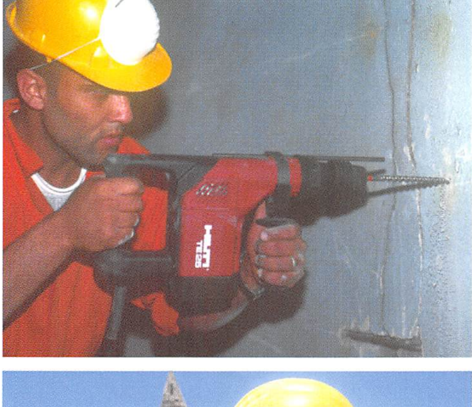


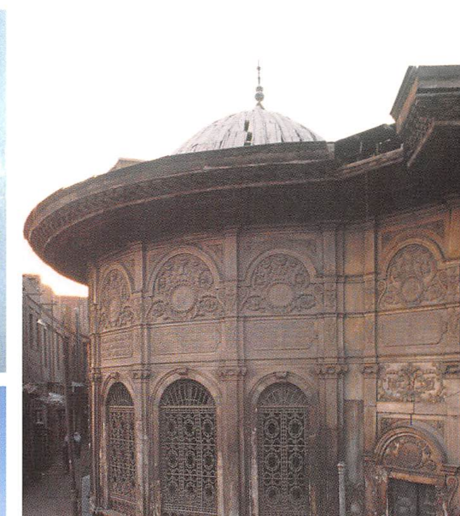




أعلى: أثناء أعمال ترميم السطح.
أسفله: اللوحة التذكارية على الواجهة قبل وبعد الترميم.

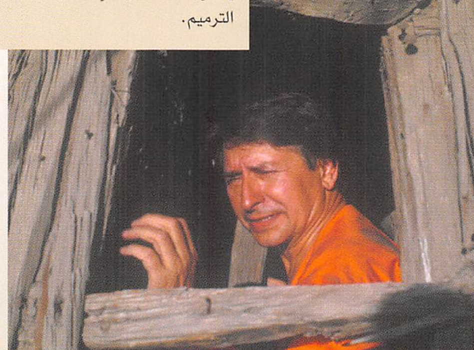
أعطيت الأولوية للمشكلات المعمارية، حيث كانت أساسات المبنى مستقرة بشكل غير مستوٍ بسبب ارتفاع منسوب المياه الجوفية وضعف التربة، بما يهدد بانهياره. وأخذت الحوائط تتصدع بمعدل ينذر بالخطر، كما أخذت دعامات السقف تنزلق من مواضع استقرارها. ولحل المشكلة تم زرع حوالى مائة ركيزة صغيرة فى ثقوب بعمق ٩ إلى ١٢ مترا حتى تصل إلى الأرض الصلبة، فتدعمت الحوائط بهذا الأساس الصلب. بعد ذلك بدأت الإصلاحات المعمارية للمبنى المتصدع المتدهور. وظهرت مشاكل فى السقوف بسبب الرطوبة المتزايدة والأمطار، لأن السقوف نفسها لم تكن مناسبة، فقد انتُزعت ألواح الرصاص التى كانت تغطى القبة الرئيسية فى ثلاثينيات القرن العشرين، وأحدثت سبعون سنة من الشمس المحرقة صيفا والمطر شتاء تلفيات كبيرة. وقد تم ترميم كل السقوف وعزلها عن الماء، وغُطيت القبة بغطاء جديد بعد إصلاحات معمارية شاملة. وقد أُعيد هلال القبة المذهب اللامع إلى مكانه، ولكن تنظيف الهلال ونصبه لم يكن سوى جزء بسيط من المعالجة الترميمية للزخرفة الغنية المتنوعة للمبنى.

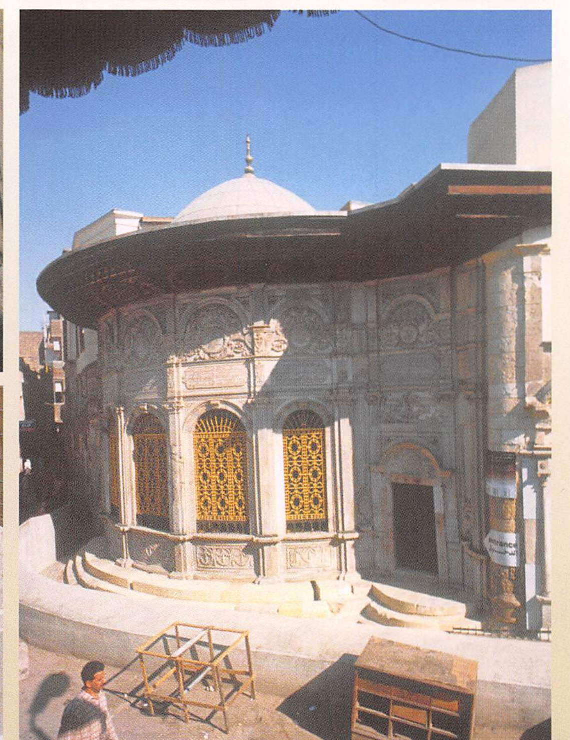


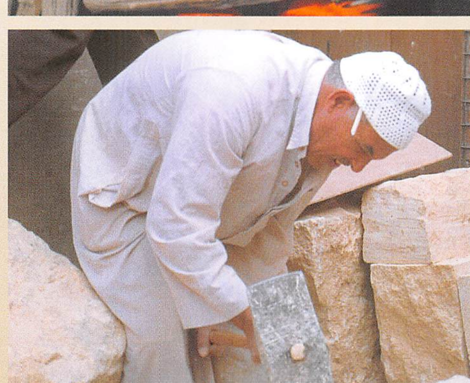




يمينا أعلى وأسفل: المدخل والواجهة الرئيسية قبل وبعد الترميم.
يسارا: الأعمال الإنشائية أثناء الترميم.







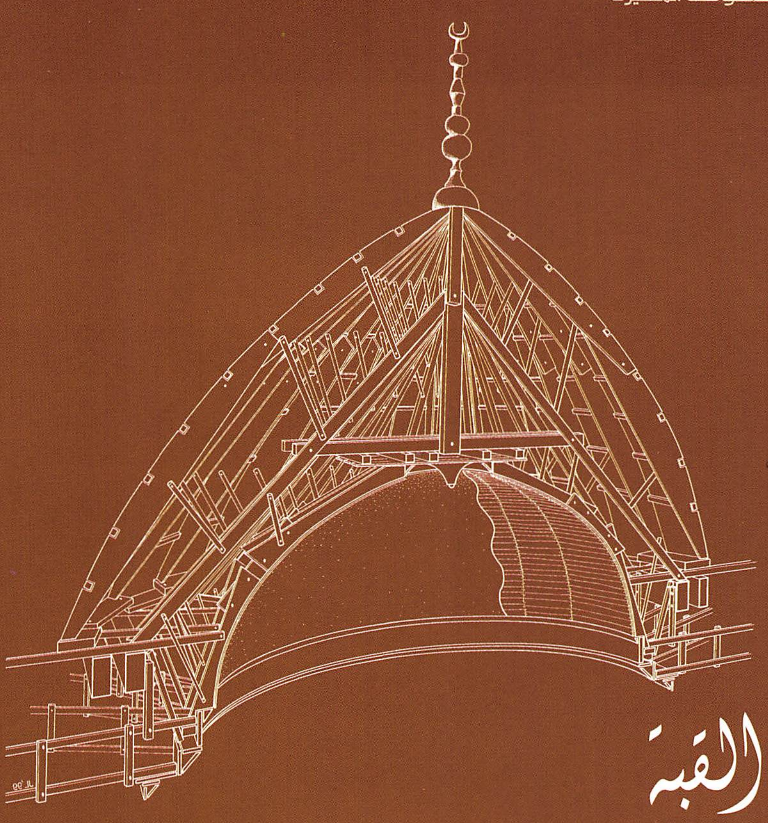


الركائز الصغيرة

لماذا احتجناها؟ وكيفية عملها؟

كان السبيل يقع فى جزء نشط ومزدحم من المدينة، ظل يضج بالحياة لأكثر من ألف عام. وبالتالى كان المبنى مستقرا على طبقات ضعيفة يفوق سمكها التسعة أمتار، نتجت عن تراكم كسر الطوب من المبانى المتهدمة ونفايات الإنتاج وقمامة المنازل ورمال الصحراء عبر القرون.

ومع تضاعف سكان القاهرة أكثر من عشر مرات فى القرن الأخير، بدأت المياه الجوفية المحصورة فى هذه الطبقة فى الارتفاع، وبدأت بحلول سبعينيات القرن العشرين تشكل خطورة على مبانى المدينة عموما، ومعالمها الأثرية خصوصا. وبدأت التربة المشبعة تحت السبيل تتراص بشكل غير مستو، مما هدد بانهياره. وللحيلولة دون ذلك تم دق أنابيب من الصلب قطرها ثمانية سنتيمترات على عمق تسعة إلى اثنا عشر مترا فى التربة، حتى وصلت إلى الأرض الصلبة، وتم ضخ الأسمنت فيها. وأخذ الأسمنت يرتفع تدريجيا بدءا من القاع وشكلت هذه الركائز أساسا صلبا للمبنى. وأُرسيت الأطراف العلوية للأنابيب فى كتل من خلطة الأسمنت دعمت الحوائط القديمة بشبكة من حديد التسليح الصلب. وتسمى هذه التقنية بالتدعيم بالركائز الصغيرة (خوازيق).



القبة

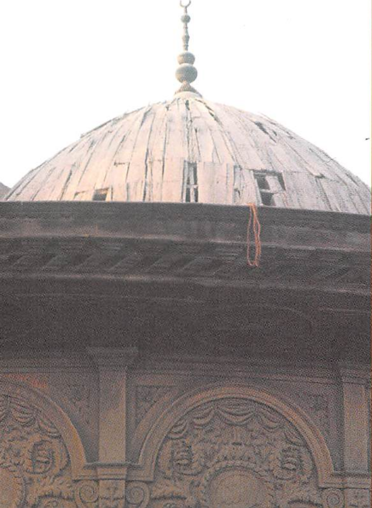
من الناحية الهندسية، لا يشكل البناء الذى يعلو حجرة السبيل قبة حقيقية. فقد بين الفحص الشامل أثناء الترميم أنه فى الواقع سقف مخروطى من العوارض الخشبية المستقرة على حوائط خارجية وعلى أخشاب ضخمة تشكل قناطر بين الأركان. وفوق هذه البنية المخروطية تستند روافد تكون هذا الشكل الذى يشبه القبة، وثُبتت عليها ألواح خشبية وغطاء من الرصاص- الصلب. أما الطبقة الداخلية نصف الكروية المزخرفة من الشرائح الخشبية والجص، مع تصوير جدارى فى الداخل، فهى معلقة من البنية الأساسية بحمالات خشبية.

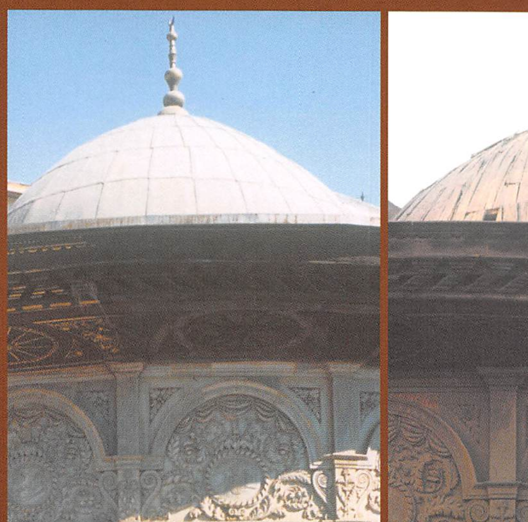
وقد أثبت هذا النمط البديع فى البناء كفاءته الكبيرة فى مقاومة الزلازل: فلم يتطلب ترميمه إلا بعض الإصلاحات البسيطة.

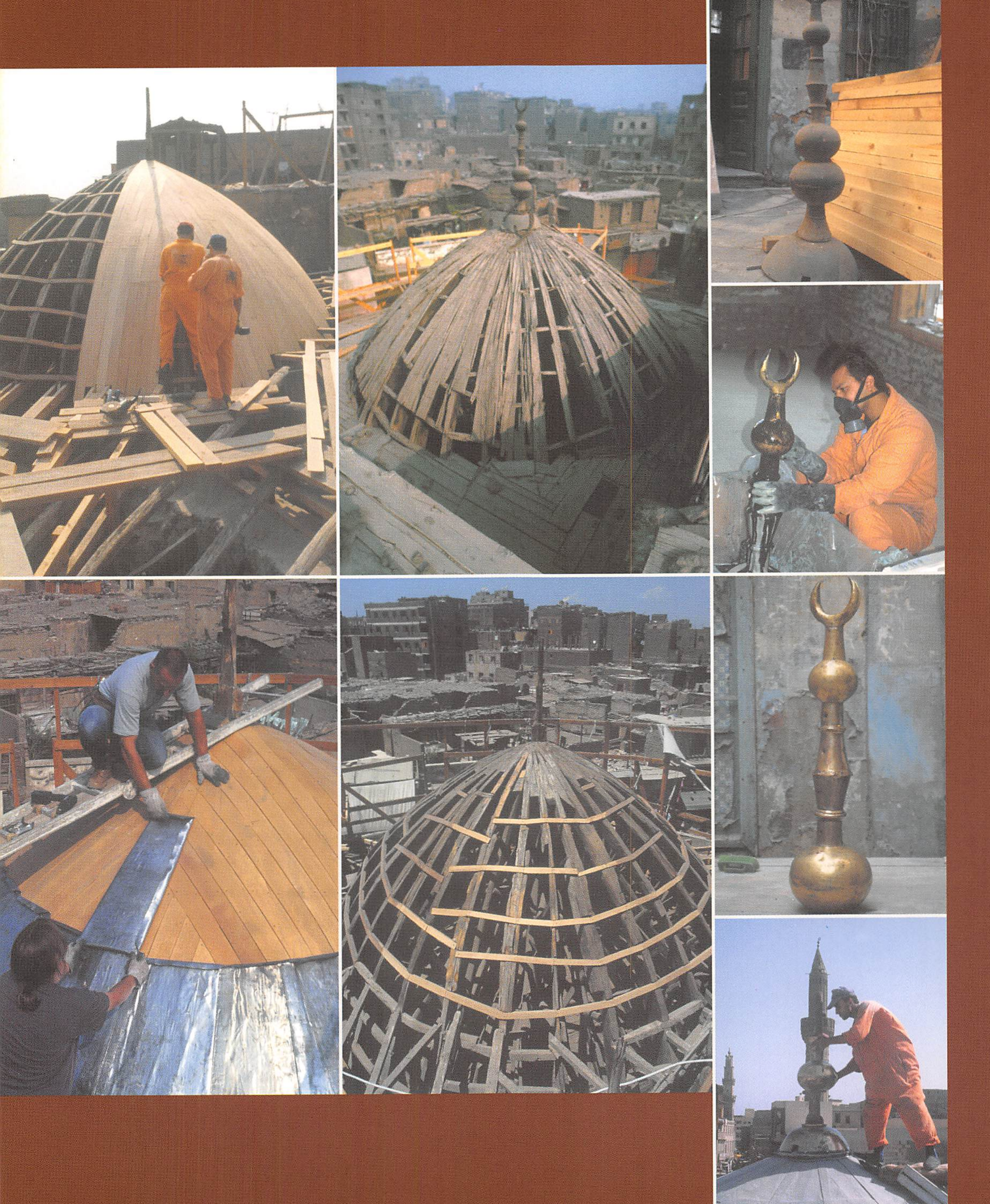
أعلى: رسم منظورى أكسونومترى يبين بنية القبة.

أسفل: القبة قبل وبعد الترميم.

الصفحة المقابلة: تطور أعمال ترميم القبة.





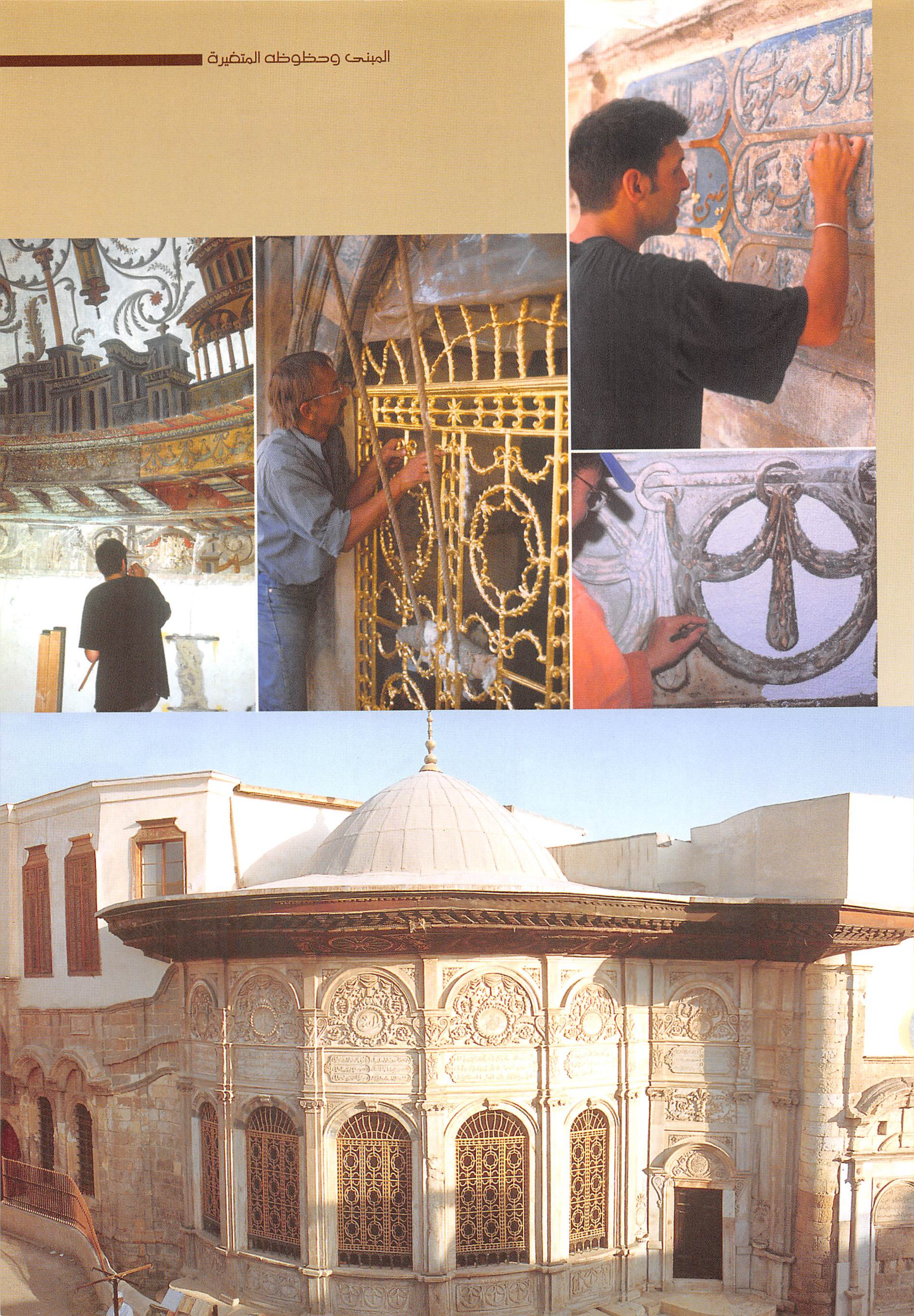


لم تبدأ أعمال الترميم الدقيق لطرز المبنى إلا بعد إجراء دراسات متخصصة. فتم تنظيف رخام الواجهة بكمادات مشبعة بمواد كيماوية. وبعد إذابة الوسخ والشحم المتراكمين تمت الإزالة يدويا بسكاكين المعجون وأدوات جراحية. كما نُظفت الأفاريز الخشبية البارزة من طبقات التراب والوسخ، وعولجت لحمايتها فى المستقبل. واستغرق ترميم القبة عاما. وأعيد تثبيت الصور الزيتية على خلفياتها ونُظفت. وحين عجزت الوسائل الكيميائية، استخدم المرممون مماسح مبللة باللعاب البشرى الذى يحتوى على إنزيمات جعلته وسيلة تنظيف فعالة ورقيقة فى نفس الوقت، لا تدانيها المذيبات الصناعية. ونُظفت الأشغال المعدنية من عوامل الصدأ، ومنعت الكيماويات المزيد منه فى المستقبل. واستُخدمت المواد والأساليب الحرفية المحلية كلما أمكن، بأقل تدخل فى الأصل. وأجرى الترميم بطريقة تسمح بإزالته واستعادة الوضع السابق بالكامل.

بعد أربع سنوات من العمل الشاق انتهت عملية الترميم عام ٢٠٠٢م. وفى العامين التاليين تم إعداد المبنى ليشمل مركزا للزائرين، بهدف عرض وشرح كل معالم المبنى وتقديم شخصية وإنجازات مؤسسه المرموق، محمد على باشا.

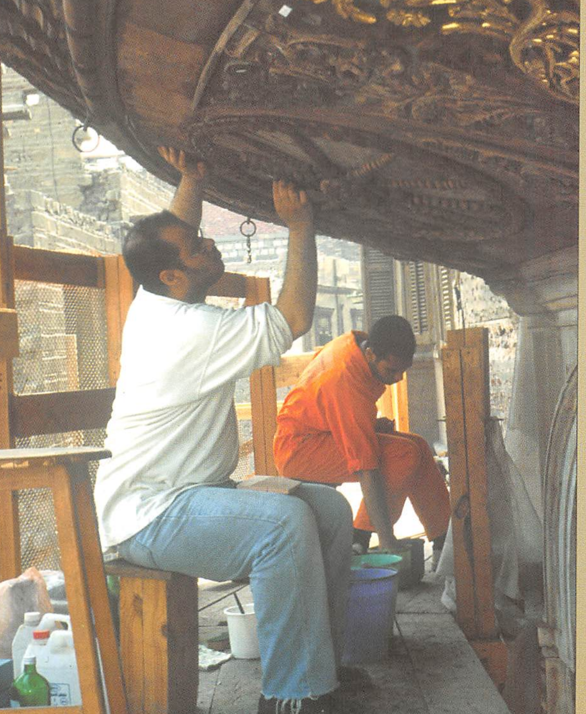


أسفل: السبيل عام ١٩٩٨.
الصفحة المقابلة: أسفل: السبيل عام ٢٠٠٤.
الصفحة المقابلة: أعلى: تقدم أعمال الترميم الدقيق.



الاخشاب







الرخـــام



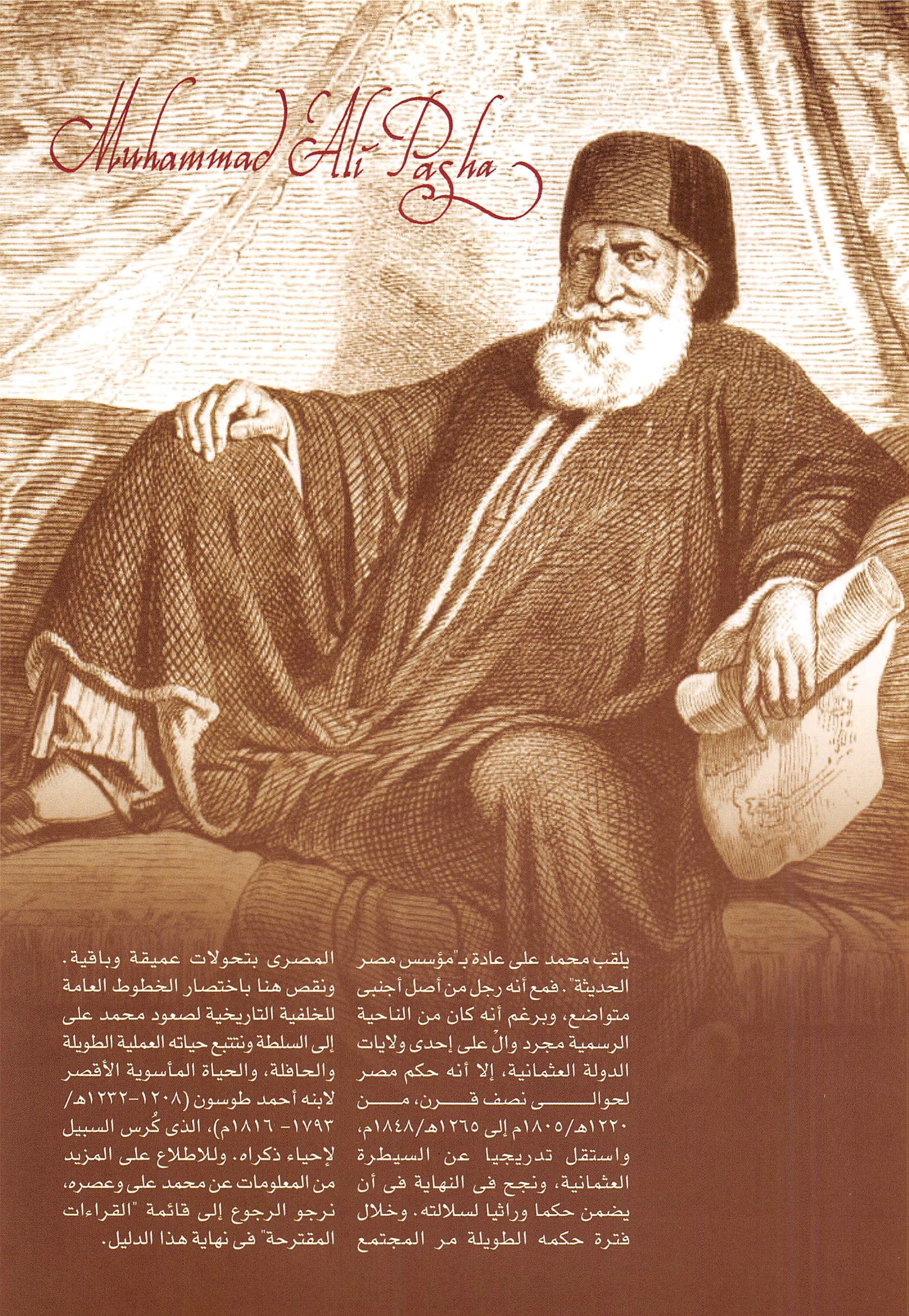
البرونز



الزخرفة بالالوان




الباشا
عصره وأسرته وإنجازاته



يلقب محمد على عادة بـ"مؤسس مصر الحديثة". فمع أنه رجل من أصل أجنبى متواضع، وبرغم أنه كان من الناحية الرسمية مجرد والٍ على إحدى ولايات الدولة العثمانية، إلا أنه حكم مصر لحوالى نصف قرن، من ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م إلى ١٢٦٥هـ/١٨٤٨م، واستقل تدريجيا عن السيطرة العثمانية، ونجح فى النهاية فى أن يضمن حكما وراثيا لسلالته. وخلال فترة حكمه الطويلة مر المجتمع المصرى بتحولات عميقة وباقية. ونقص هنا باختصار الخطوط العامة للخلفية التاريخية لصعود محمد على إلى السلطة ونتتبع حياته العملية الطويلة والحافلة، والحياة المأسوية الأقصر لابنه أحمد طوسون (١٢٠٨-١٢٣٢هـ/ ١٧٩٣- ١٨١٦م)، الذى كُرس السبيل لإحياء ذكراه. وللاطلاع على المزيد من المعلومات عن محمد على وعصره، نرجو الرجوع إلى قائمة "القراءات المقترحة" فى نهاية هذا الدليل.

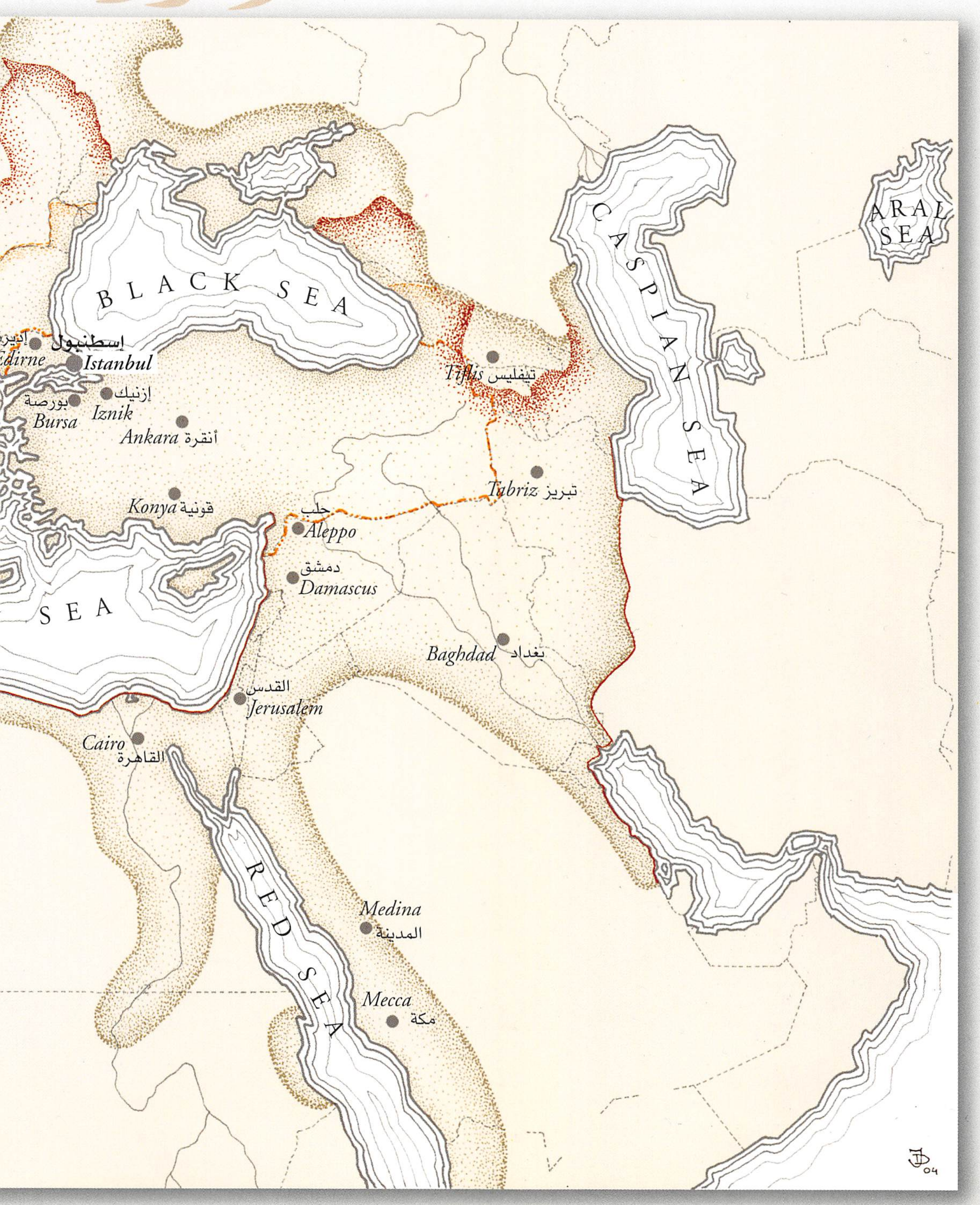
مصر والدولة العثمانية

حين غزا السلطان سليم الأول مصر عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م، أصبحت إحدى ولايات الدولة العثمانية، بعد أن كانت دولة إسلامية ذات سيادة لستمائة عام. وكانت الدولة العثمانية الواسعة التى تمتد من المجر إلى اليمن، ومن العراق إلى الجزائر، تُحكم من اسطنبول. وكانت مصر بصفة خاصة غنيمة ثمينة بسبب وفرة ثروتها الزراعية التى جعلت منها سلة خبز الدولة العثمانية - مثلما كانت بالنسبة للفاتحين الأجانب الآخرين من قبل. ولكى يحافظ العثمانيون على سيطرتهم على هذه الولاية المهمة، لم يعينوا إلا الموثوق بهم من رجالها ولاة عليها، وكانوا يستبدلونهم غالبا بعد فترات ولاية قصيرة، ويكافئونهم بمناصب أعظم دخلا حين يعودون إلى اسطنبول. وكان يُفترض فى الولاة، المدعومين بحامية صغيرة، أن يحفظوا القانون والنظام وأن يرسلوا الجزية أى الضريبة المفروضة على مصر، إلى اسطنبول سنويا. وكان عليهم أيضا أن يؤمنوا طرق الحج المارة عبر مصر ويحمونها.



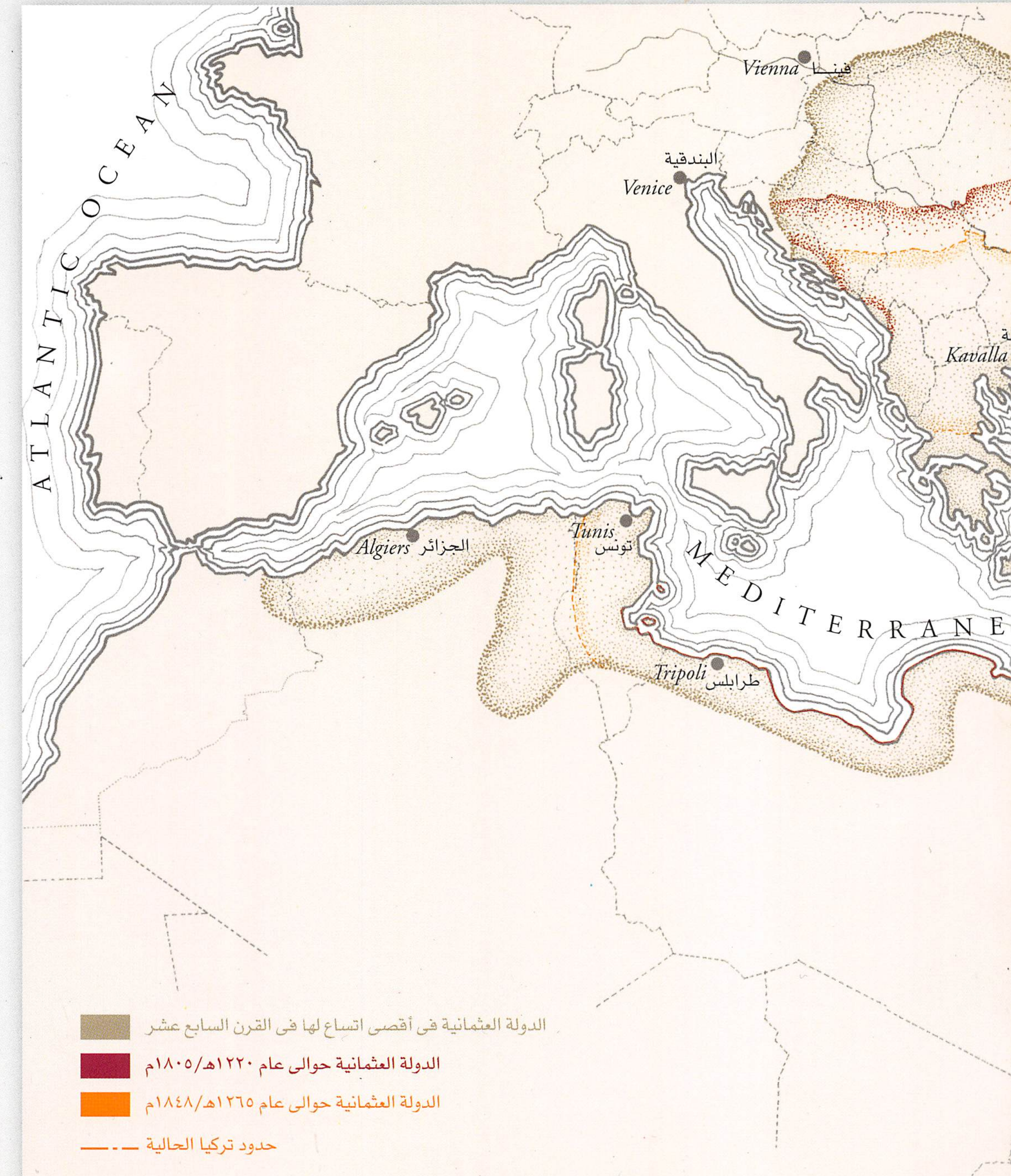
الصفحة المقابلة: محمد على باشا تشارلز كودر.
أعلى: جامع السلطان أحمد فى اسطنبول (١٠٢٦هـ/١٦١٧م).

الدولة



BLACK SEA
CASPIAN SEA
ARAL SEA
SEA
RED SEA
إسطنبول
Istanbul
إزنيك
Iznik
بورصة
Bursa
Ankara أنقرة
Konya قونية
Tiflis تيفليس
Tabriz تبريز
حلب
Aleppo
دمشق
Damascus
Baghdad بغداد
القدس
Jerusalem
Cairo
القاهرة
Medina
المدينة
Mecca
مكة

العثمانية



ATLANTIC OCEAN
Vienna فينا
البندقية
Venice
Kavalla
Algiers الجزائر
Tunis
تونس
MEDITERRANE
Tripoli طرابلس
الدولة العثمانية فى أقصى اتساع لها فى القرن السابع عشر
الدولة العثمانية حوالى عام ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م
الدولة العثمانية حوالى عام ١٢٦٥هـ/١٨٤٨م
حدود تركيا الحالية

العثمانيون



على مدار العصور القديمة المتأخرة والقرون الوسطى تدفقت موجات من الشعوب البدوية من آسيا متجهة غربا. وحاز حكامها أحيانا قوة هائلة وحكموا مناطق شاسعة. وكان الأتراك العثمانيون من هذه الشعوب، ولكنهم على خلاف الغزاة الذين سبقوهم نجحوا فى إقامة إمبراطورية فى الأراضى التى غزوها دامت مئات السنين. وقد اعتنقت هذه القبائل التركية الإسلام على المذهب السنى أثناء زحفها الطويل غربا، واستقرت فى الأناضول فى إمارات صغيرة كثيرة. وفى حوالى عام ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م ميلادية نجح عثمان، الذى سميت السلالة الحاكمة العثمانية باسمه، نجاحا باهرا فى توحيد كثير من هذه الإمارات المتنافسة، بحيث استطاع العثمانيون خلال قرن ونصف أن يستولوا بالغزو على المقاطعات البيزنطية الواقعة فى جزء كبير من تركيا الحالية والبلقان. وفى عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م استولوا على القسطنطينية، عاصمة الإمبراطورية البيزنطية لألف عام، وأسموها اسطنبول، ثم استداروا جنوبا، ونجحوا فى أوائل القرن السادس عشر فى الاستيلاء على قلب الأراضى الإسلامية، بما فيها مدن بأهمية القاهرة وبغداد والقدس وتلقب الحكام العثمانيون بالسلاطين، وأضافوا ألقابا كثيرة أخرى، كان أحبها لديهم لقب "حامى الحرمين الشريفين"، أى مكة والمدينة. وبعد غزو مصر اتخذوا رسميا لقب "الخليفة". وبحلول القرن السادس عشر كانت دولتهم التى اعتمدت فى بداياتها على الغزو والغنائم قد تطورت تدريجيا لتصبح إمبراطورية تعتمد ثروتها على الزراعة والتجارة. ومع تحول السلاطين العثمانيين من شيوخ قبائل إلى سادة إمبراطورية قوية وغنية انعزلوا بالتدريج فى قصورهم الضخمة الفخمة فى اسطنبول، وحكموا الإمبراطورية بواسطة بيروقراطية معقدة وكفؤة، استطاعت أن تحفظ تماسك أراضى شاسعة مأهولة برعايا من قوميات ولغات وتقاليد مختلفة، وولايات يحكمها ولاة أو نواب للسلطان مزودين بسلطة واسعة. وبفضل حكومتها الكفؤة وجيشها المرهوب واقتصادها المزدهر، ظلت الدولة العثمانية لزمن طويل محسوبة بين القوى الكبرى فى العالم. غير أن المشكلات أخذت تتزايد بدءا من القرن السابع عشر. فقد غير اكتشاف العالم الجديد - الأمريكتين - الاقتصاد العالمى إلى الأبد. وفرضت أوربا باقتصادها الرأسمالى المتنامى وتوسعها الاستعمارى تحديات لم تستطع الدولة العثمانية أن تواجهها برغم محاولات الإصلاح الداخلى الجادة. وفوق ذلك أودى انتشار الإيديولوجيات القومية بعد الثورة الفرنسية بولاء كثير من رعايا السلطان، خصوصا فى البلقان.

وبحلول القرن التاسع عشر كانت الدولة العثمانية قد ضعفت بشكل ملحوظ بعد أن أخذت تفقد ولاياتها الأوربية واحدة إثر الأخرى، حتى أصبحت تُعرف بلقب غير مشرف، هو "رجل أوربا المريض". و بعد الحرب العالمية الأولى اختفت الدولة العثمانية من الوجود تماما، ونشأت من أطلالها الجمهورية التركية ودول عربية كثيرة.



جمع د. خالد فهمى الوثائق والخطابات التى ترجع لعصر محمد على الواردة فى هذا الدليل، كجانب من عمله البحثى فى دار الوثائق القومية المصرية. ولغة هذه الوثائق إما التركية العثمانية أو العربية. وتقدم هذه الوثائق التي لم يسبق نشرها نموذجا لكيفية عمل الإدارة الحكومية لمحمد على.

"التوجيهات" السلطانية السنوية لعام (١٢٢٨هـ/١٨١٣م)، وبها تسمية محمد على واليا على مصر.

المماليك: الأمراء المصرلية



حكم السلاطين المماليك مصر أكثر من ٢٥٠ عاما، من ٦٤٧هـ/١٢٥٠م إلى ٩٢٣هـ/١٥١٧م. كما حكموا مناطق واسعة أبعد من مصر نفسها. وكانوا أيضا رعاة عظاما للفن والعمارة. ووصف أحد الرحالة المعاصرين للمماليك القاهرة تحت حكمهم بأنها "أم المدن، وسيدة ولايات واسعة وأراض خصبة، وفيرة المبانى بلا نهاية، منقطعة النظير فى جمالها وسناءها". وبالفعل ما زال الطراز المعمارى الذى تطور فى عهد سلاطين المماليك يحدد شخصية المدينة التاريخية القديمة.

أتى هؤلاء الحكام من صفوف الرجال الذين كانوا يُجلبون كعبيد إلى مصر، ثم يحصلون على تدريب عسكرى ممتاز فى بيوت سادتهم، ثم يُعتقون ويُرقون إلى مرتبة كبار الضباط. وعلى هذا النحو كان كل أمير يعتمد على بيت كبير أو جماعة من المماليك الذين يتمتع بولائهم القاطع، وكانت هذه الزمر تتنافس فيما بينها على السلطة، ويملأ تنازعها الحوليات (كتب التاريخ) بقصص مؤامراتهم وشجاعتهم، وولاءهم وخيانتهم، وطقوس البلاط المعقدة ومغامراتهم الجريئة. وبعد الغزو العثمانى عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م أصبحت مصر مجرد ولاية داخل إمبراطورية ضخمة تحكمها اسطنبول. غير أن السلطة الفعلية ظلت بيد الأمراء المماليك ببيوتهم الكبيرة. وظلت حتى العمارة وفية لطرازها المملوكى التقليدى، فلم يتعد تأثرها بالعثمانيين الاقتباس البطئ لبعض السمات الواردة من العاصمة الإمبراطورية.

وطوال القرن السابع عشر أضعفت المنافسة بين البيتين المملوكيين الكبيرين، الفقارية والقاسمية، المماليك أمام العثمانيين. غير أن المماليك أمنوا لأنفسهم فى القرن الثامن عشر اعترافا ضمنيا من اسطنبول باستقلالهم على أساس الأمر الواقع. وحاول السلطان أن يعيد إحكام سيطرته على مصر بإرسال قوة عسكرية إليها عام ١٢٠١هـ/١٧٨٦م، ولكنها، بعد بداية ناجحة، فشلت فى نهاية المطاف وسُحبت بعد عام.

وهكذا كانت قوات المماليك هى التى واجهت نابليون بونابرت حين غزا مصر عام ١٢٣١هـ/١٧٩٨م، ولكن برغم شجاعة المماليك وفروسيتهم كانت تكتيكات حرب الفرسان التى تنتمى للقرون الوسطى عاجزة عن مواجهة المربعات المنضبطة لمشاة نابليون.

لقد أضعفت الهزيمة سلطة المماليك بشدة، ولكن الضربة القاضية كانت على يد محمد على بمذبحة القلعة الشنيعة عام ١٢٢٦هـ/١٨١١م.

كان المماليك يتحدون السيطرة العثمانية على مصر باستمرار. وبحلول منتصف القرن الثامن عشر كانت سلطتهم قد غلبت على سلطة الوالى العثمانى والسلطة الإمبراطورية التى يمثلها. وحاولت اسطنبول أن تعيد فرض سيطرتها، فأرسلت جيشا إلى مصر عام ١٢٠١هـ/١٧٨٦م، ولكنه فشل فى التخلص من المماليك، وسُحب بعد عام. وظل المماليك يهددون سلطة والى مصر حتى تم القضاء عليهم نهائيا عام ١٢٢٦هـ/١٨١١م.

أحلام فرنسا في إمبراطورية على النيل

فى ١٢٣١هـ/١٧٩٨م غزا مصر نابليون بونابرت، وكان أحد جنرالات الجمهورية الفرنسية وعمره ٢٩ عاما. وكان يأمل بعمله الجرئ هذا أن يقطع طرق المواصلات البريطانية مع الهند ويؤسس لوجود فرنسى دائم فى مصر. وبرغم أنه هزم المماليك فى معركة الأهرام، وطارد جيشه من فروا منهم إلى الصعيد، فإن خططه قد تحطمت فى خليج أبى قير، قرب الإسكندرية، حيث أغرق الأسطول البريطانى بقيادة الأدميرال هوراشيو نلسون الأسطول الفرنسى، بما فيه سفينة القيادة، "لوريون" (أي الشرق)، التى كانت حينئذ أكبر سفينة حربية فى العالم. وانتفضت القاهرة سريعا ضد الفرنسيين برغم أن بونابرت قد أعلن أنه مسلم صالح وأن الجنود الفرنسيين قد أتوا لينقذوا سكان البلاد من ظلم المماليك. وقد قمع نابليون الانتفاضة بوحشية، ولكنه هجر قواته بعد ذلك إلى باريس بحثا عن المجد. وفى النهاية أُجبر الفرنسيون على التخلى عن طموحاتهم الإمبراطورية فى مصر، بسبب وباء الطاعون المدمر وهجوم حملة بريطانية وجيشين عثمانيين عليهم، فرحلوا عن آخرهم عام ١٢١٦هـ/١٨٠١م، وانسحب البريطانيون أيضا سريعا خوفا من التكلفة المالية والدبلوماسية العالية لحلولهم كمحتلين محل الفرنسيين.

الصفحة المقابلة: مملوك يمسك حصانه، تيودور جريكو.
أسفل الصفحة المقابلة: مماليك فى نهاية القرن الثامن عشر.
أسفل: نابليون بونابرت فى مصر، جان- ليون جيروم.





مقابلة مع محمد على فى قصره بالإسكندرية، ديفيد روبرتس، ١٢ مايو ١٨٣٩.

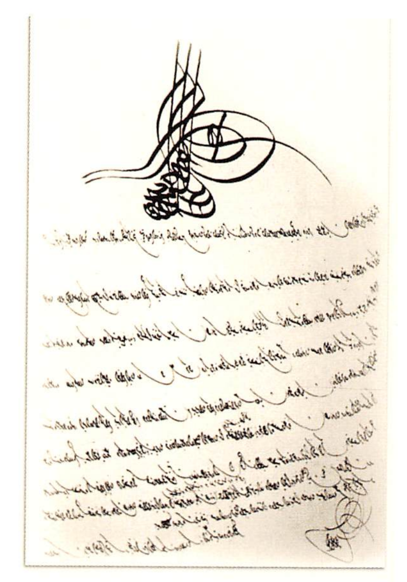
كتب الفنان فى يومياته: "كان الباشا يلبس زيا بسيطا، لا توجد عليه أية علامة لم تطبعها الطبيعة تشير لتميزه الذى تمثل الاعتراف به فى الاحترام الذى أبداه الجميع نحوه".

والى مصر

ملأ محمد على فراغ السلطة الناتج، وهو من أهالى مدينة قولة فى مقدونيا، وابن تاجر دخان له روابط أسرية وثيقة بالإدارة العثمانية فيها. وقد أتى إلى مصر بصفته الرجل الثانى فى قيادة أحد الجيشين العثمانيين اللذين أرسلا لطرد الفرنسيين، وأصبح قائدا لحوالى ألفين من الجنود الألبان الأشداء، واستمال تجار القاهرة وأعيانها وعلماءها بوعدهم باستعادة القانون والنظام. وبرغم أن اسطنبول حاولت أن تعيد تثبيت سلطتها فإن الولاة المتعاقبين الذين أرسلتهم إلى مصر فشلوا فى معالجة الوضع المضطرب. وأخيرا اضطر السلطان العثمانى سليم الثالث (حكم: ١٢٠٧-١٢٢٢هـ/١٧٩٣- ١٨٠٧م) إلى أن يعترف بما حققه محمد على. ففى ١١ يوليو ١٨٠٥ وصل إلى القاهرة فرمان بتعيينه واليا عثمانيا على مصر بلقب باشا، برغم أنه دخيل على دوائر الحكم فى اسطنبول.

توطيد دعائم الحكم

وجد محمد على نفسه وهو فى سن السادسة والثلاثين واليا على واحدة من أغنى ولايات الدولة العثمانية. ولكنه كان يدرك مدى هشاشة وضعه فى ضوء جهله بالعربية (كان يتحدث باللغة التركية)، والافتقار إلى روابط أسرية فى مصر المتقلبة سياسيا.



لكى يدعم محمد على سلطته استدعى أعضاء أسرته إلى مصر. وكان أول من وصل منهم أكبر أبنائه، إبراهيم (وُلد ١٢٠٤هـ/١٧٨٩م) وطوسون (وُلد ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م). وبعدهما أتى أصدقاء ومعارف من مدينته، ليشكلوا نواة النخبة الحاكمة الجديدة. وفى نفس الوقت أفشل محاولات اسطنبول المتكررة لخلعه من مصر، ولم يطع إلا الأوامر التى تناسبه. فتجاهل مطالب السلطان المتكررة بإرسال قوات إلى الحجاز لتقاتل الوهابيين، وهم فرقة إسلامية متزمتة مقاتلة استولت على مكة والمدينة، فهددت بذلك هيبة السلطان العثمانى فى عيون رعاياه المسلمين.

وفى ١٢٢٢هـ/١٨٠٧م انتهز محمد على الفرصة لتوطيد سيطرته على الإسكندرية أيضا، حيث كانت حتى ذلك الحين تحت الحكم المباشر لاسطنبول، ولا تتبع القاهرة. وكان ذلك بعد أن اضطرت حملة بريطانية حاولت أن تستولى على المدينة للانسحاب بعد أن تكبدت خسائر فادحة بسبب المقاومة الشعبية الشرسة فى مدينة رشيد القريبة.

أعلى: محمد على باشا، فنان ألمانى.
أعلى يمينا: فرمان من السلطان لمحمد على يهنئه فيه على صد الهجوم البريطانى على الإسكندرية، أواسط رمضان ١٢٢٢هـ/ منتصف نوفمبر ١٨٠٧.

مذبحة المماليك

جاء التحدى الأكبر لسلطة محمد على من مصر نفسها، فقد واصل المماليك نهب البلاد وتجاهل سلطته. وفى ١٢٢٦هـ/١٨١١م دبر خطـة خبيثـة للتخلص منهم. فبعد أن وافق أخيرا على مساعدة السلطان فى صراعه مع الوهابيين قرر إرسال قوة عسكرية للحجاز بقيادة طوسون، ثانى أبنائه. واحتفالا بهذه المناسبة دعا قادة المماليك وأتباعهم إلى القلعة. وبعد أن شرب معهم القهوة، رحلوا مخترقين ممرا ضيقا، أعد لهم جنود محمد على الألبان فيه كمينا وأبادوهم عن آخرهم. وتلت ذلك إبادة دموية لمن تبقى من المماليك وعائلاتهم وأتباعهم فى كل أنحاء البلاد. وبهذه الطريقة الشنيعة أنهى محمد على وجود المماليك فى مصر إلى الأبد، وأصبح سيد مصر بلا منازع.



أعلى: مذبحة المماليك، هوراس فيرنيه.

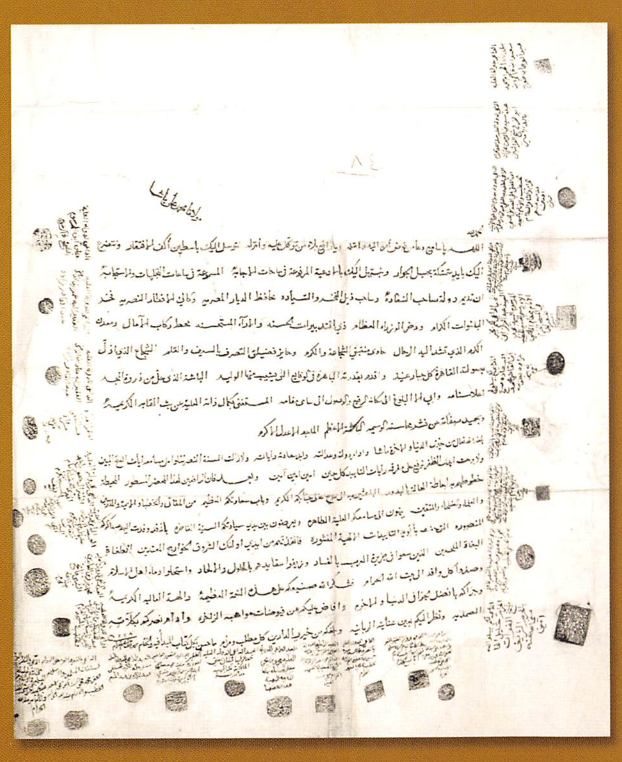
الصفحة المقابلة: خطاب من محمد على إلى الصدر الأعظم (رئيس الوزراء باسطنبول) يخبره فيه بمذبحة المماليك وما تلاها من رحيل حملة الحجاز، مؤرخ ٩ صفر ١٢٢٦ (٣٠ يوليو ١٨١١).

"لقد استخدمت حجة الاحتفال بمراسم وداع جيش ابني، طوسون باشا، إلى بهركة الحج، ودعوت كل قادة المماليك الذين كانوا في خدمتنا، وعددهم أربعة وعشرين أميرا وكل القادة الآخرين وأتباعهم... إلى القلعة، وبمجرد دخولهم أُغلقت كل أبواب القلعة وتم ذبح كل الأوغاد المذكورين ولم يفلت أحد، حيث أرسلناهم جميعا إلى عالم الموت والعدم".


طوسون باشا

طوسون الابن المحبب

كان طوسون أحب أبناء محمد على إليه. وقد وصل طوسون، الذى وُلد عام ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م، إلى مصر بعد أن أصبح أباه واليا بقليل. وعينه محمد على وعمره ثمانية عشر عاما قائدا للحملة على الوهابيين فى الحجاز، فاستولى الشاب على مكة والمدينة عام ١٢٢٨هـ/١٨١٣م وأرسل مفاتيح المدينتين إلى السلطان فى اسطنبول. وحين لاقت الحملة بعد ذلك مصاعب خطيرة، سافر محمد على إلى الحجاز ليساعد ابنه. وتوثقت العلاقة بينهما أثناء تلك الزيارة القصيرة، فأصبحت على النقيض من علاقته بإبراهيم، أخو طوسون الأكبر، التى اتسمت بالاحترام المتبادل، ولكن أيضا بفتور العواطف. وكان القائد العسكرى الفذ إبراهيم رجلا عنيدا بطبيعته، اعتمد على قواته المصرية، ولكنه اعتبر جنوده مجرد وقود للمدافع. ونحن نعلم بالمقابل أن طوسون كان شخصية ودودة، كما كان كريما وشجاعا، ومغرما حقا بالمصريين، يحبه مرءوسوه ويحترموه. وعاد طوسون إلى مصر بعد حملته الحجازية واستُقبل استقبال الأبطال، وفى ٧ ذو القعده ١٢٣١هـ/ ٢٩ سبتمبر ١٨١٦م عاد إلى قصره فى برنبال، قرب رشيد، وأخذ يعد لمأدبة احتفال بهيجة.

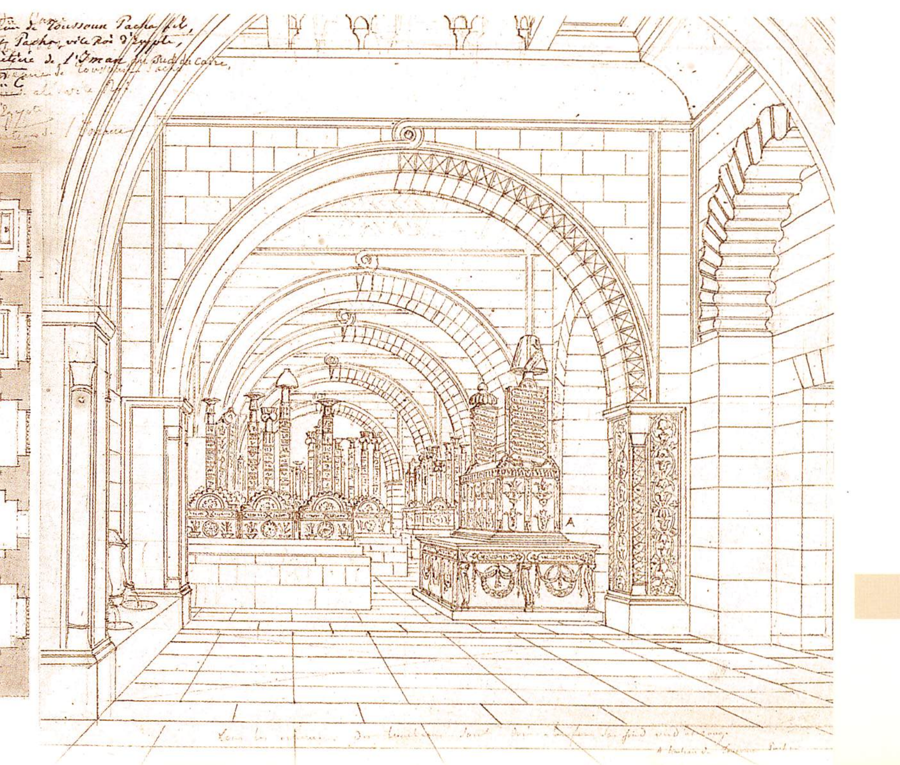


"... ينهون إلى مسامعكم العلية الطاهرة، ويعرضون بين يدى سيادتكم الفاخرة، بأنه قد وفدت عساكركم المنصورة، التى حفت (؟) بألوية التأييدات الالهية المنشورة، فأنقذتموهم من أيدى أولئك الشروق الخوارج المعتدين الطغاة، البغاة الملحدين، الذين سعوا فى جزيرة العرب بالفساد، وزيفوا عقايدهم بالحلول والإلحاد، واستحلوا دماء أهل الإسلام، وصدوا كل وافد إلى بيت الله الحرام، فشكراً لله صنيعكم على هذه النعمة العظيمة، والهمة العالية الكريمة، وجزاكم بأفضل الجزا فى الدنيا والآخرة"

الصفحة المقابلة: طوسون باشا.
أعلى: عريضة من واحد وثلاثين من كبار المشايخ والأئمة والمفتين، من مكة، يشكرون محمد علي على تخليصهم من الوهابيين، مؤرخة نهاية محرم ١٢٢٨ هـ/٢ فبراير ١٨١٣.
يمينا: خطاب من طوسون إلى محمد على يخبره فيه بالاستيلاء على مكة، مؤرخ ١ صفر ١٢٢٨هـ/٣ فبراير ١٨١٣.

مأساة شخصية

لم يكد الاحتفال يبدأ حتى مرض طوسون بالطاعون، ومات خلال أربع وعشرين ساعة. وحين بلغ النبأ الفاجع محمد على كاد أن يغشى عليه. وأثناء ذلك كان موكب جنازة طوسون فى طريقه للضريح الذى أقامه الباشا فى القاهرة لنفسه ولأسرته. فلحق به الباشا سريعا، وهو دائخ مذهول، غير مصدق بما حصل. وقد وزع سبعين كيسا من العملات الذهبية والفضية على الفقراء أثناء الجنازة، وأُعلن الحداد لمدة أربعين يوما، مُنعت فيها الأفراح والاحتفالات. ولُطخت البيوت بالطين علامة على الحزن. وهذا السبيل هو النُصُب الذى أقامه محمد على لإحياء ذكرى ابنه.
وبرغم أن هذه لم تكن المرة الأولى ولا الأخيرة التى يفقد فيها محمد على أحد أبنائه الذين أنجبهم من زوجاته وسرياته العديدات، فإن حزنه على طوسون لا يقارن بحزنه على أى ابن آخر خلال حياته الطويلة. وتكشف قصة وقعت بعد موت طوسون بسنوات قليلة إجلال الباشا لذكرى ابنه. وهى تروى أنه استقبل طالبا شابا اسمه يوسف أفندى، كان قد أرسله قبل ذلك إلى أوربا ليتعلم الزراعة. وقد جلب يوسف معه بعض أشجار اليوسفى لزراعتها فى مصر، وعرضها على الباشا الذى سأل عن اسمها. فتذكر الشاب أن رجال الحاشية قد أخبروه أن طوسون الراحل هو أحب أبناء الباشا إليه، فأجاب أن اسمها "طوسون باشا". أُعجب محمد على بتملق الشاب المجامل، ورد المجاملة قائلا، "حسنا، سنسميها يوسف أفندى". ومنذ ذلك الحين أصبح الاسم الشائع لهذه الفاكهة فى مصر كلها هو "يوسف أفندى".



قبر طوسون، باسكال كوست.

الإدارة والمال

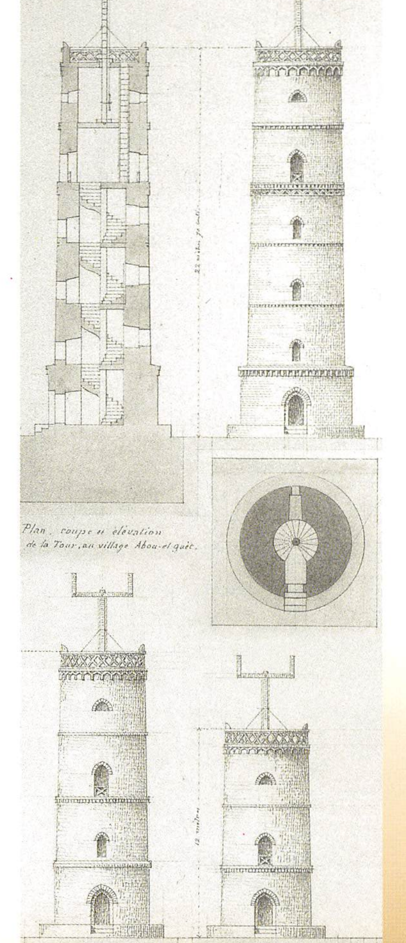
كان محمد على برغم خسارته الشخصية الكبيرة بموت طوسون آمنا فى مركزه فى مصر، بفضل طموحه المفرط وذكاءه السياسى ورؤيته الحادة الخارقة للطبيعة البشرية. فقد كان يفهم الناس برغم أنه لم يتعلم القراءة حتى سن الأربعين. وقال يوما إن "الكتب الوحيدة التى قرأتها هى وجوه الناس، ونادرا ما أخطأت فى قراءتها". وبدأ يعين أعضاء نخبته فى الوظائف الرئيسية فى الأقاليم، وكان يرسل إليهم تعليمات واضحة مكتوبة ليضمن انصياعهم لأوامره. وانطلاقا من ذلك نشأت بيروقراطية مركزية تتسم بتسلسل واضح فى السلطة، من الباشا نزولا إلى مشايخ القرى. كما سيطر على اقتصاد مصر ليمول مشاريعه، فصادر ممتلكات المماليك الواسعة وأراضى الأوقاف الدينية، ووضع نظاما جديدا للضرائب جعل كل أرض مصر الزراعية تقريبا فى حوزته. كما وضع نظام الاحتكار ليجبر الفلاحين على بيع منتجاتهم إلى مستودعات الحكومة بالأسعار التى يحددها.

يمينا: خطاب من محمد على إلى ناظر (محافظ) مديرية الدقهلية، ١٧ ذو القعدة ١٢٥٠ (١٧ مارس ١٨٣٥).

"فأنا أدخلتك فى سلك الاعتبار وشرفتك وجعلتك حاكم ورفعت من عليك ضرب النبوت فأنتا ، :أنت... يا ملعون ما تركت الملاعبة ، :التلاعب وقصدك عطل مصلحتى... إذا كان لم يطلع فى يدك براح المصلحة فتعرض لى لأجل أوجه من ينظر تشهيل مصلحتى عوضك وأنت ترجع فى زمرة الفلاحين يا خنزير".

الزراعة والري

نفذ محمد على برنامجا شاملا للأشغال العامة ليزيد الإنتاج الزراعى ويدفع بالسلع إلى الأسواق. وبدأ فى ١٢٢٨هـ/١٨١٣- ١٨١٤م بمسح شامل للأراضى الزراعية، وبعد ثلاث سنوات باشر العمل فى مشروع ضخم: حفر ترعة المحمودية لتربط الإسكندرية بالنيل. وأضاف بقنواته وجسوره وسدوده الكثيرة مليون فدان من الأراضى الزراعية الجديدة، فزادت مساحة الأراضى القابلة للزراعة بنسبة كبيرة. كما زادت الإنتاجية، فالأراضى التى كانت تنتج فى العادة محصولا واحدا، أصبحت تنتج غالبا محصولين، وأحيانا ثلاثة. وفى ١٨٢١ أدخل محمد على القطن طويل التيلة الذى سيصبح محصول مصر التصديرى الرئيسى. وزادت عوائد الباشا بسرعة، ولكن زيادة الدخل جلبت معها زيادة احتمال طرد السلطان له من الولاية التى جعلها أغنى بكثير.



أعلى: القناطر الخيرية.
يسارا: عواميد التلغراف، باسكال كوست.

الجيش الجديد



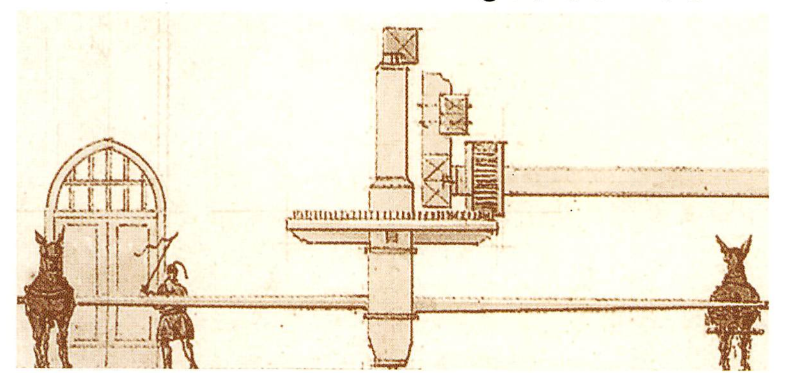
فى نفس هذا العام، ١٨٢١، باشر محمد على مشروعا آخر كان يرجو أن يمكنه من الصمود فى وجه أى هجوم تقوم به اسطنبول، وهو خلق جيش حديث مبنى على التجنيد، بقيادة ضباط يتحدثون بالتركية استجلبهم من كل أنحاء الدولة العثمانية. وحصل العديد من الضباط الأوربيين (معظمهم فرنسيين) على مناصب عالية فى جيش الباشا. أما العساكر فكانوا من الفلاحين المصريين المجندين من كل أنحاء البلاد. وكان من شأن هذا العمل أن يغير وجه الحياة فى المجتمع المصرى. وبحلول منتصف ثلاثينيات القرن التاسع عشر نجحت السلطات فى حشد جيش من ١٣٠ ألف رجل، يمثلون نسبة هائلة من السكان الذين كانوا يقدرون بحوالى خمسة ملايين. وأصبح بمقدور الباشا أن يشعر بمزيد من الثقة فى متانة مركزه بفضل الجيش المدعوم بأسطول بحرى رهيب، تكون جزئيا بالشراء من الخارج وبُنى الباقى فى مصر. وأصبحت مصر قوة عسكرية كبرى فى شرقى المتوسط، جعلت محمد على أقوى بكثير من سيده القانونى، السلطان العثمانى.

أعلى: جنود مصريون.
يمينا: مشاهد التجنيد.



ثورة صناعية؟

أقيمت فاوريقات (مصانع) كثيرة لتمد الجيش الجديد باحتياجاته. وقد أنتجت هذه المؤسسات الصناعية الجديدة المنسوجات وأحذية الجيش والسكر والذخيرة وغيرها من البضائع المتزايدة التخصص، معظمها لاستهلاك الجيش. وبرغم أنها كانت فى معظم الأحيان غير صالحة للتصدير، فإنها كانت أرخص، مما مكن الباشا من توفير مبالغ ضخمة من تكاليف الإمدادات. وينقسم الرأى حول قيمة وأهمية هذه الفاوريقات: فالبعض يرى فيها بداية الثورة الصناعية الحقيقية فى مصر، التى كتب لها الفشل بسبب عداء الغرب: والآخرون يقللون من شأنها على أساس أنها مؤسسات أقيمت بتسرع وعديمة الكفاءة، كما حالت شدة ارتباطها بالجيش دون أن يكون لها تأثير إيجابى على الاقتصاد ككل، بينما نفرت العمال بسبب قسوة ظروف العمل فيها وفشلت فى خلق طبقة عاملة حديثة.



إلى اليسار: خطاب من إلياس مسك، مدير مصنع، إلى سامى بك وباسيلى بك، يشكو فيه من حالة مصنعه، ٥ رجب ١٢٥٠ (٧ نوفمبر ١٨٣٤).

الصفحة المقابلة: أعلى: تجهيزات صناعية، تصميم ورسم باسكال كوست، ١٨٢٠.

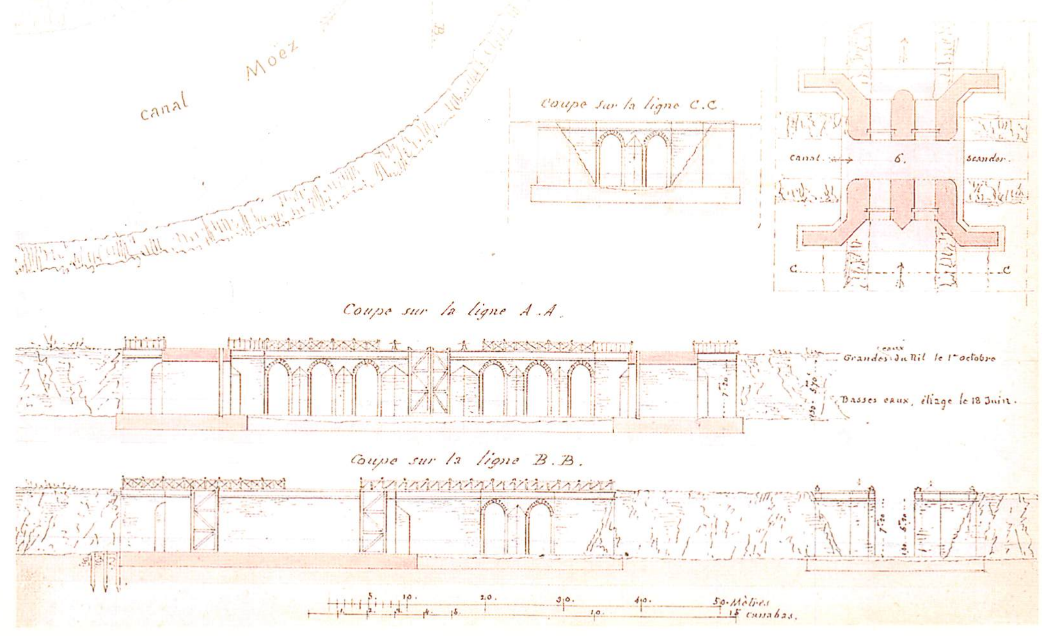
الصفحة المقابلة: أسفل: مقاطع عرضية للجسور فوق ترعة المحمودية، تصميم ورسم باسكال كوست، ١٨٢٣.

"حسبما يجب اعراضه (:عرضه) على عالى دولتكم أن مقدم هذه (:هذا) العرض عبدكم إيلياس مسك ناظر فاوريقة (:مصنع) اسنا يعرض لعالى دولتكم أن فاوريقة اسنا الان صار لها ستة سناوات (:سنوات) ولم دارت لها أشغال".

Détails d'un des Bâtiment et des Machines à Bâttre la Poudre — pour sept semblables, Construits dans l'enceinte de la nouvelle Poudrière, en 1820, à l'angle sur l'île de Rodah, attenant au Nilomètre.

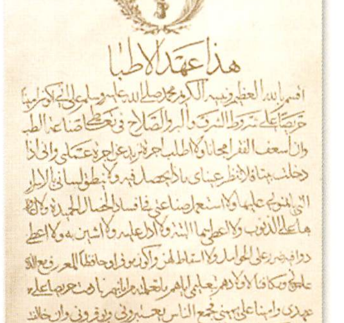
Coupe sur A.A. du Plan.

Coupe sur B.B. du Plan.



الطب الحديث وبداياته في مصر

أدرك محمد على الذى كان دائما رجلا عمليا أن الأمراض والافتقار للرعاية الطبية للجرحى تقتل من جنوده أكثر ممن تقتلهم المعارك، فأقام أول مدرسة طبية فى مصر، قصر العينى، التى افتُتحت عام ١٨٢٧. وفيها تلقى الطلبة المصريون الشبان آخر ما وصل إليه علم الطب وقتها. وأُلحقت بها مدرسة لتعليم القابلات (الدايات) أسس الطب الحديث. وأصبحت هذه المؤسسات الطبية غير المسبوقة فى الشرق الأوسط أساس برنامج طبى شامل خدم البلاد كلها، لا الجيش وحده. فأجريت حملة تطعيم شاملة ضد الجدرى، وأقيم نظام محكم للحجر الصحى كفى البلاد شر أوبئة الكوليرا والطاعون المدمرة. ومكن الجمع الكفء للإحصائيات الحيوية السلطات من مراقبة الأوبئة والسيطرة على الأمراض.



هذا عهد الاطبا

اقسم بالله العظيم ونبيه الكريم محمد صلى الله عليه وسلم على اني اكون دايما
حريصا على شروط الشرف والبر والصلاح في تعاطي صناعة الطب
وان اسعف الفقرا مجانا ولا اطلب اجرة تزيد عن اجرة عملي واني اذا
دخلت بيتا فلا تنظر عيناي ما يحصل فيه ولا ينطق لساني بالاسرار
التي اطلع عليها ولا استعمل صناعتي في افساد الخصال الحميدة ولا [illegible]
ها على الذنوب ولا اعطي ابدا السم ولا ادل عليه ولا اشير به ولا اعطي
دوا يضر على الحوامل ولا اسقاط الحمل واكون موقرا وحافظا المعروف مع الذين
علموني ومكافئا لاولادهم بتعليمي اياهم بالتعليم [illegible] بان اكون حريصا على
عهدي وامينا عليه يحق لجميع الناس بعد ذلك ان يوقروني وان خالفت
ذلك فاكون المرذول المحتقر والله شهيد على ما اقول قد تم العهد

أعلى: درس التشريح فى مستشفى قصر العينى فى القاهرة.
يسارا: طبعة عربية من عهد (قسم) الأطباء من مدرسة أبى زعبل، ١٨٣٢.

أعلى: سبيل محمد على باشا والمدرسة التى أُضيفت إليه بعد عقد من إنشائه، روبرت هاى، ١٨٤٠.

الخطط التعليمية

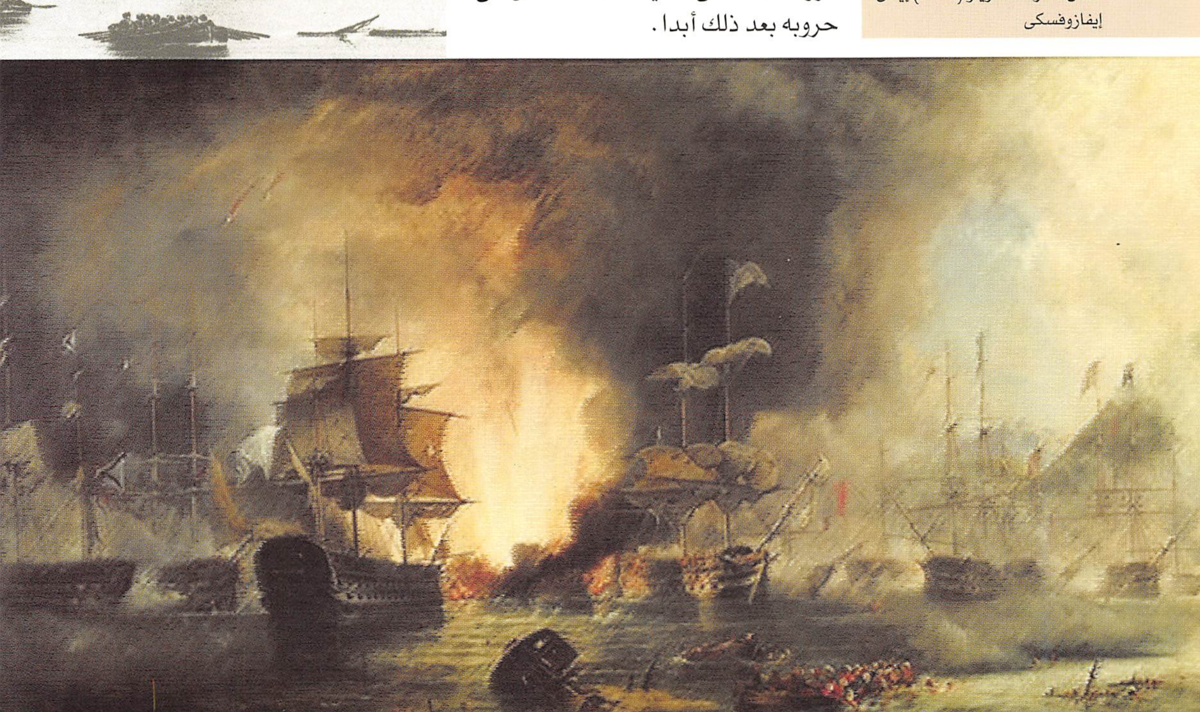
أقيمت المدارس لتمد الجيش بالعاملين المهرة، فكانت تدرس علوم الهندسة والمحاسبة والترجمة والمدفعية والطب البيطرى. ولما كانت المدارس مصممة أساسا لتدرب المصريين ليحلوا محل الفنيين الأجانب الذين يتقاضون أجورا باهظة فى الجيش، فإن تأثيرها كان محدودا على بقية المجتمع. ومع ذلك كان لطباعة ترجمات كتب عديدة (أساسا فى العلوم العسكرية والطب، ولكنها شملت أيضا أعمالا فى التاريخ والأدب) وصدور "الوقائع المصرية"، صحيفة بيروقراطية الدولة، أثرٌ على الحياة الثقافية المصرية امتد لأجيال. وقد تولت مطبعة الباشا الجديدة فى بولاق طباعة معظم هذه المطبوعات.



التوسع العسكرى: السودان والحجاز واليونان

استخدم محمد على جيشه الرائع فى السيطرة على السودان، وقمع انتفاضة ثانية فى الحجاز، وبدأ عام ١٢٣٩هـ/١٨٢٤م يساعد السلطان فى منطقة مضطربة أخرى، هى بلاد اليونان. فقد ثار رعايا السلطان اليونانيون فى انتفاضة ضد الحكم العثمانى استمرت ثلاث سنوات. وفى النهاية لجأ السلطان لتابعه القوى ليساعده. وبعد بداية مبشرة نجحت فيها القوات المصرية فى الاستيلاء على أثينا، دارت الدائرة على محمد على. ففى ربيع أول ١٢٤٣هـ/أكتوبر ١٨٢٧م أغرقت قوة بحرية بريطانية فرنسية روسية مشتركة أسطوله بأكمله أثناء رسوه فى خليج نافارينو غرب اليونان. وكانت هذه الكارثة نقطة تحول بالفعل فى علاقة الباشا بالسلطان، حيث قرر محمد على ألا يساعد السلطان فى حروبه بعد ذلك أبدا.

يسارا: السفن الحربية المصرية
أسفل: معركة نافارينو (١٨٢٧) إيفان إيفازوفسكى



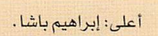


غزو الشام

بعد أن اندملت جراح محمد على من كارثة حرب اليونان، أقدم فى عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م على أجرأ مغامراته العسكرية: غزو الشام. ففى هجوم برى وبحرى خاطف استولى إبراهيم باشا، ابنه الذى يثق فيه والقائد العسكرى البارز، على كل المدن الرئيسية فى الشام، بل وعبر جبال طوروس ودخل الأناضول، قلب الدولة العثمانية. وبحلول عام ١٢٥٠هـ/١٨٣٣م كانت قواته على مسيرة يوم واحد من اسطنبول. وبدا ووكأن الدولة العثمانية التى عاشت ستمائة عام على وشك الانهيار. ولكن روسيا أنقذتها بإرسال أسطولها ليرسو أمام اسطنبول استجابة لالتماس السلطان اليائس للنجدة. وتم ترتيب هدنة بين السلطان العثمانى وواليه المتمرد.

١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م: عام الحسم

افتُتِح الفصل الأخير فى المواجهة بين محمد على والعثمانيين عام ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م، حين قرر السلطان أن يكسر الجمود العسكرى ويجبر محمد علي على سحب قواته من الشام. ولكن الجيش المصرى بقيادة إبراهيم باشا البارعة حقق نصرا ساحقا جديدا. وفوق ذلك مات السلطان فى اسطنبول قبل أن تصله أنباء الهزيمة العسكرية. وتضاعفت الكارثة بإبحار الأسطول العثمانى إلى الإسكندرية وانضمامه إلى محمد على. وهكذا فقدت الدولة العثمانية فى بضعة أسابيع سلطانها وأسطولها وجيشها. وبدا محمد على وقتها الرجل القوى الوحيد فى كل أنحاء الدولة العثمانية.


أعلى: إبراهيم باشا.



مصر ولاية وراثية

كان نجاح محمد على أكبر مما ينبغى، فقد انزعجت القوى الأوربية حين شعرت أن الدولة العثمانية على شفا الانهيار، وصممت على منع ذلك لأنه قد يؤدى إلى قيام حرب أوربية شاملة على تقسيم الغنيمة. واضطر محمد على حين واجه أوربا متحدة أن يقبل المساومة. وأجبرته التسوية الناتجة على الانسحاب من كل الأراضى التى امتلكها عدا مصر والسودان، وأن يخفض حجم جيشه تخفيضا كبيرا. وكان من الصعب على فاوريقاته أن تستمر بعد أن حُرمت من طلبيات الجيش الكبيرة، وخصوصا لأن نظام الاحتكار الذى أقامه قد أُلغى، بما سمح بدخول التجار الأوربيين إلى الأسواق المصرية. غير أن الباشا حقق أيضا هدفه الأصلى، حيث أصدر السلطان فرمانا عام ١٢٥٧هـ/١٨٤١م يمنح محمد على وأسرته الحكم الوراثى لولاية مصر.

الشيخوخة والوفاة

بعد أن تسلم محمد على الفرمان الذى كان يشتهيه، حول انتباهه بالكامل للإصلاحات الداخلية وتعظيم عوائده من مصر. وفى ثلاث سنوات، من ١٢٦٢هـ/١٨٤٦م إلى ١٢٦٤هـ/١٨٤٨م، أُجرى إحصاء رسمى للسكان بدقة عكست الكفاءة العالية للبيروقراطية المصرية الجديدة. غير أن طاقة محمد على وخياله المذهلين، اللذان واصلا العمل طيلة ذلك الوقت، بدءا يأفلان. فبحلول عام ١٢٦٢هـ/١٨٤٦م، وفى عمر السبعين، بدأت تظهر عليه أعراض الشيخوخة. وذهب ابنه إبراهيم، التالى فى ترتيب الوراثة، إلى اسطنبول ليعين واليا على مصر. وحين مات إبراهيم بعد أقل من عام انتقلت الولاية إلى عباس باشا، ابن طوسون، أحب أبناء محمد على إليه، باعتباره أكبر أعضاء العائلة الذكور. وفى ١٣رمضان ١٢٦٥هـ/٢ أغسطس ١٨٤٩م مات محمد على باشا، ودُفن فى مسجد القلعة الكبير الذى يشرف على القاهرة.

أعلى: محمد على باشا.
الصفحة المقابلة: شجرة العائلة.



محمد علي

١٧٦٩-١٨٤٩

تولى الحكم ١٨٠٥-١٨٤٨





طوسون

١٧٩٣-١٨١٦



إبراهيم

١٧٨٩-١٨٤٨

تولى الحكم ١٨٤٨



سعيد

١٨٢٢-١٨٦٣

تولى الحكم ١٨٥٤-١٨٦٣



عباس حلمي الأول

١٨١٣-١٨٥٤

تولى الحكم ١٨٤٨-١٨٥٤



إسماعيل

١٨٣٠-١٨٩٥

تولى الحكم ١٨٦٣-١٨٧٩



فؤاد الأول

١٨٦٨-١٩٣٦

تولى الحكم ١٩١٧-١٩٣٦



حسين كامل

١٨٥٣-١٩١٧

تولى الحكم ١٩١٤-١٩١٧



توفيق

١٨٥٢-١٨٩٢

تولى الحكم ١٨٧٩-١٨٩٢



فاروق الأول

١٩٢٠-١٩٦٥

تولى الحكم ١٩٣٦-١٩٥٢



عباس حلمي الثاني

١٨٧٤-١٩٤٤

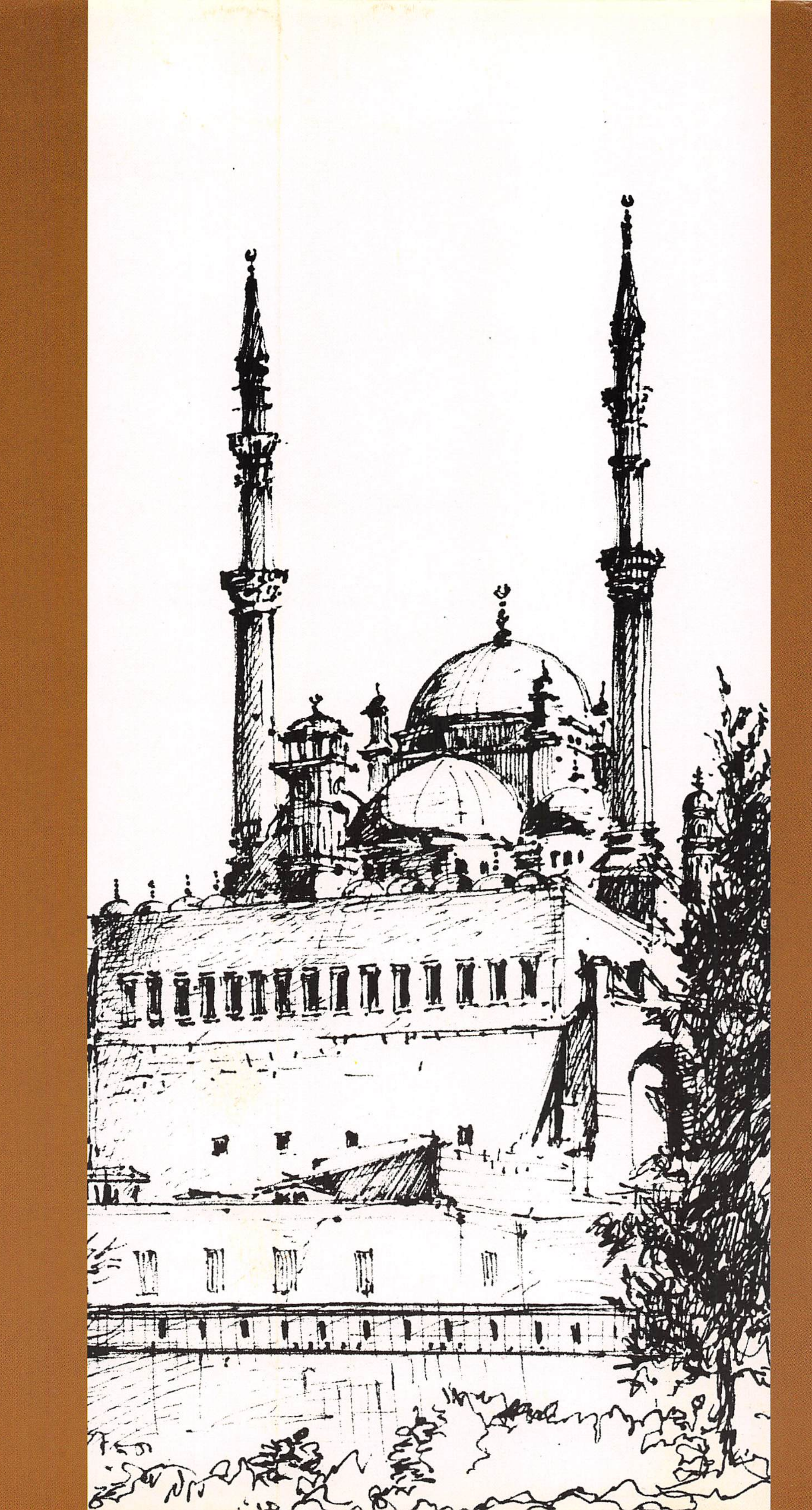
تولى الحكم ١٨٩٢-١٩١٤



بناء مصر الحديثة

كان دفن محمد على فى مسجد القلعة الذى ظل أحد معالم القاهرة البارزة موفقا، فقد كان أثر الباشا على مصر عميقا وباقيا. فزراعة القطن طويل التيلة ربطت مصر بعجلة الاقتصاد العالمى، وربطتها بشكل أكبر بالأسواق الأوربية. كما غير محمد على طبيعة الدولة المصرية وصلة الشعب بها جذريا بإقامة مؤسسات حكم جديدة وفتح مدارس حكومية وتطعيم الأطفال ضد الجدرى وإحصاء السكان بانتظام وتجنيد الآلاف من الشباب فى الجيش الجديد. وكانت إصلاحاته الطبية أنفع سياساته، فقد حسنت الحالة الصحية للشعب المصرى تحسينا جوهريا. وما زال تأثير محمد على باشا على الحكم والمجتمع فى مصر ملموسا حتى الآن.

أعلى: محمد على باشا.
الصفحة المقابلة: مسجد محمد على (١٨٤٠) بالقلعة بالقاهرة.



قراءات مقترحة



خالد فهمى

كل رجال الباشا: محمد على وجيشه وتأسيس مصر الحديثة. ترجمة شريف يونس. القاهرة: دار الشروق: ٢٠٠١.

رءوف عباس حامد

مصر فى عصر محمد على: إصلاح أم تحديث؟ القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة: ٢٠٠٠.

عبد الرحمن الجبرتى

عجائب الآثار فى التراجم والأخبار. تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم. القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٩٧.

عبد الرحمن الرافعى

عصر محمد على. القاهرة: دار المعارف: ١٩٨٩.

عبد الرحمن زكى

التاريخ الحربى لعصر محمد على الكبير. القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٠.

عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم

محمد على وشبه الجزيرة العربية. القاهرة: دار الكتاب الجامعى، ١٩٨١.

لطيفة محمد سالم

الحكم المصرى في الشام. القاهرة: مكتبة مدبولى، ١٩٩٠.

سبيل محمد علي باشا

بالعقادين - القاهرة



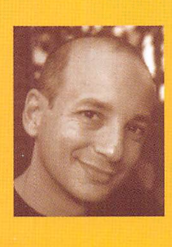

الى شارع صلاح سالم
شارع الأزهر
جامع الأزهر
ميدان
الحسين
خان الخليلى
شارع المعز لدين الله
شارع الأزهر
ط المدينة
2004

أجنيشكا دوبرولسكا



مهندسة ترميم معمارى، عاشت فى القاهرة أكثر من عشر سنوات، وعملت فى مواقع أثرية وترميمية كثيرة فى مصر، وأدارت مشروعات ترميم آثار فى مصر القديمة، باسم مركز البحوث الأمريكى بمصر. ومن هذه المشروعات ترميم سبيل محمد على باشا الذى استغرق جهدها لأكثر من ست سنوات.

خالد فهمى



أستاذ مساعد تاريخ الشرق الأوسط الحديث فى قسم الدراسات شرق الأوسطية والإسلامية بجامعة نيويورك. وهو مؤلف كتاب "كل رجال الباشا: محمد على وجيشه وبناء مصر الحديثة"، ودراسات عديدة عن التاريخ الاجتماعى والثقافى فى مصر القرن التاسع عشر. وهو يقسم وقته بين القاهرة ونيويورك.

سبيل محمد على باشا

دليل المعرض الدائم
المقام فى سبيل محمد على باشا
العقادين، القاهرة

تقدم هذه الصفحات مبنى قاهرى فخم ومهم، وله أهمية تاريخية خاصة. وهى توضح لماذا وكيف أُنشئ، وكيف كان يستعمل، وكيف تغير عبر الزمن. كما تحكى لنا قصة الحياة الحافلة لمنشىء المبنى، محمد على باشا، وشخصيته الساحرة، قصة الرجل الذى غير حكمه الطويل مصر وشعبها تغييرا عميقا.

© دار الشروق

ISBN 977-09-1146-1



622102014168

النص والتصميم: م. أجنيشكا دوبروفلسكا - أعمال كمبيوتر مرفت، ڤيرجين جرافكس